الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس –مستغانم-

كلية الآداب والفنون



قسم اللغة العربية وآدابها

ماستر أدب وحضارة

الروح البنّابية

قــراءة في مذكــرات العفــن لمالكــ بن نبــي

من إعداد الطالب :

عبد الحق شملال

تحت إشراف :

أ.د. محمد قادة

السنة الجامعية : 2016 / 2017

بســــــــــــم الله ..

الرحمــــــــــــن الرحيـــــــم

إهـــــداء

أهـــدي هــذا العمــــل إلـى نفســـي

شكـــــر عـــــام

أشكـــر كل الأشخــــاص الجيّــدين والسيّـــئين الذين عرفتهــــم
فــــي حيــــاتي من لحظـــة الميـــلاد إلـــى الآن ، ، ،

شكـــــر خــــاص

غير أنني أخصّ بالشكر كلاّ من :

الصديق والأخ العيد حمدي شريف ، فقد تكفّل بكل نفقات الطبع ، وبفضله ، بعد الله عزّ وجلّ ، رأى هذا العمل النور .. أدعو الله أن يوفّقه في حياته ويحقق جميع أمانيه وأن يباركه أينما حلّ وارتحل ويجعله مفتاحا للخير مغلاقا للشر..

وكذا أخص بالشكر الأخ والصديق عبد الله فاتح عدلي فقد أهداني النسخة الورقية لمذكرات مالك بن نبي الموسومة بـ(العفن) ، لذا أدعو الله أن يوفّقه في حياته وأن يحقق جميع أمانيه ..

وكذا أخص بالشكر أستاذي المشرف أ.د. محمد قادة على اقتراحه الموضوع الجميل والمهم والذي كانت عوائده حميدة جمّة على مختلف الأصعدة .. والشكر موصول أيضا للجنة المناقشة ..

فهرســت

مقدمـــــة

حمدا وصلاة وسلاما، أما بعد :

نقدّم في هذه المحاولة قراءة لمذكرات مالك بن نبي الموسومة بـ(العفن) Pourritures Mémoires، وهي المذكرات التي قدّر لها ألا ترى النور إلا بعد وفاة صاحبها بنيّف وثلاثين سنة، من زمن وفاة بن نبي رحمه الله 1973م إلى سنة الطبع الأولى الخاصة بالترجمة العربية لدار الأمة 2007م .

ألفينا هذه المذكرات لدى قراءتنا لها، مادة خصبة يمكن لها أن تؤسس لكثير من الأبحاث ذات علاقة بمالك بن نبي نفسه وبتاريخ الجزائر الحديث وقضايا الفكر العربي والإسلامي والعالمي وبنظرات حضارية ومناهج فكرية وتربوية وغير ذلك. وقد أشرنا إلى ما أمكننا استخراجه من مواضيع ممكنة في خاتمة هذه الدراسة على شكل توصيات يمكن لأي راغب في تناول مذكرات العفن من زاوية أخرى أن يختار أحدها .

تظهر أهمية هذا الموضوع (قراءة في مذكرات العفن) من عدّة نواح نذكر منها :

- الدور الإتمامي والمفتاحي الذي تؤديه مذكرات العفن بالإضافة إلى البناء الفكري البنابي العام .
- هذه المذكرات كاشفة لتفاصيل ذات أهمية بالغة تتصل بشخصيات وأحداث ومؤسسات .
- تدلنا هذه المذكرات على أبعاد جديدة في الشخصية البنابية على نحو مكثّف جامع، مما نبّهنا إلى «الخصائص الفريدة» للشخصية المدروسة هاهنا، وهذه النقطة الأخيرة تعبّر عن الطابع العام الذي ميّز هذه الدراسة، لذلك اخترنا العنوان الرئيس (الروح البنابية) .

فاختيارنا لعبارة «الروح البنابية» عنوانا لهذه الدراسة مردّه إلى طبيعة الدراسة نفسها، بحيث تتناول مالك بن نبي في سيرة حياته، وآراءه في العلماء الجزائريين المعاصرين له من منطلق نظرته الخاصة، والمكونات المعرفية والمسالك العملية التي ميّزت هذه الشخصية. فالدراسة متعلّقة بابن نبي في روحه (أسلوبه في التفكير، بنيته المعرفية، فعاليته) أكثر مما تتعلّق بمؤلفاته الفكرية أو آراءه الحضارية، لذا لم نر أنسب من هذا العنوان «الروح البنابية» تعبيرا عن محتوى هذه لدراسة .

الجدير بالذكر، أننا لم نعثر على دراسة سابقة استقلّت بدرس مذكرات (العفن) باعتبارها «مادة بحثية أساسية»، إنما وجدنا إشارات إليها عابرة متفرّقة هنا وهناك في كتابات المهتمين بدراسة مالك بن نبي، لذا نرجّح أن تكون دراستنا هذه الموسومة بـ(الروح البنابية : قراءة في مذكرات العفن)، هي أول عمل «استقل بمذكرات العفن موضوعا أساسيا له»، وهو ما أكّده لنا أيضا الأستاذ الدكتور المشرف محمد قادة * .

وكان اختيارنا لهذا الموضوع هو استجابة لاقتراح أستاذنا المشرف، ونرى أن اقتراح الأستاذ كان اقتراحا مسددا واستجابتنا له كانت ردّ فعل موفّقا، حيث أننا اكتشفنا قامة فكرية عزّ مثيلها ليس فقط في الجزائر، بل في الوطن العربي كله، إن لم نقل في العالم. ولسنا نقول هذا الكلام عن جهل، وإنما كل دارس لمالك بن نبي وُفّق إلى فهم النظرات العميقة لهذا الرجل سيؤكد هذا الوصف، كما أكّده الدكتور عدنان إبراهيم، والأستاذ محمد المبارك الذي كتب في حق بن نبي، لدى تقديمه لكتاب (وجهة العالم الإسلامي) : «أنا لا أقول إنه (ابن نبي)، ولكن أقول إنه ينهل من نفحات النبوة، وينابيع الحقيقة الخالدة» . إنما نستغرب بعد هذا كله موقف الصمت المطبق حول / والانصراف عن الفكر البنابي في الأوساط الأكاديمية أو بين جمهور المثقفين، والذي يجعلنا نضع علامة استفهام كبرى حول براءة كل هذا، ويجعلنا أيضا نقلق على الوعي العربي الذي نشكّ في سلامة تمييزه لما ينفعه عما يضره في ميدان التسابق الحضاري .

فاكتشافنا لمالك بن نبي ـ والفضل عائد في هذا بعد الله عزّ وجل إلى أستاذي الكريم محمد قادة ـ نعتبره نقطة تحوّل بالنسبة لنا، ليس فقط على الصعيد الفكري بل على جميع الصُعد، والذي نراه يرسم معالم توجّهنا مستقبلا إن شاء الله .

كان اعتمادنا الأول ونحن ندرس مذكرات العفن، باعتبارها مادة البحث، هي باقي مؤلفات مالك بن نبي التي يجمعها العنوان الكبير (مشكلات الحضارة)، فكانت هي مصادر بحثنا، وننبه إلى أننا لم نستنجد بجميع مؤلفاته، وإنما اخترنا بعض العناوين ذات العلاقة، والتي من شأنها أن تساهم في تقدّم الموضوع المدروس. وبالنسبة لمنهج الدراسة فقد تم اعتماد طريقة الاستقراء والتنظيم. وذلك باستقراء آراء مالك بن نبي النقدية للعلماء نظريا وعمليا في المذكرات قيد الدراسة تحت عنوان (العلمائية). وكذا استقرينا نظراته التي تعكس بنية الفكر وطبيعة المسلك البنابيْن تحت عنوان (البنابية)، وقمنا بتنظيم جميع هذا ورتبناه على شكل مباحث، بعد عملية التلخيص. وإليك الخطة :

* أكرر شكري للأستاذ المشرف (أ.د. محمد قادة)، أولا لاقتراحه الموضوع، وثانيا لتوجيهاته المبدئية، وثالثا لطريقته المميّزة في الإشراف التي تمنح الطالب مساحة من الحرية يمكن أن تستفيد خلالها من أخطاءه الخاصة وبذا تظهر بصمة الطالب الخاصة ويغدو العمل أكثر أصالة .

بعد تمهيد ضم إشارة موجزة إلى المسار البنابي وطابعه الفكري ومؤلفاته، وضعنا فصلا أولا قسمناه إلى ثلاثة مباحث، اختصت بدرس المذكرات ملابساتيا وماهويا وتلخيصا .

ثم خصصنا فصلا ثانيا وأخيرا، متكوّنا من مبحثين لاستقراء وتنظيم آراء بن نبي النقدية حول العلماء الجزائريين، وكذا تسليط الضوء على الخصائص التي ميّزت مالك بن نبي معنويا وعمليا .

هذا ونرجو أننا قدمنا فائدة ما من خلال هذا العمل المتواضع، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبـد الحـق شمـلال

سيــدي بلعبــاس

2017 / 04 / 21

(تمهيـــــــــد)

1 ـ مـالك بن نبـي

2 ـ فكـره ومؤلفـاتـه

تمهيـــد

أنا لا أقول إنه (ابن نبي)، ولكن أقول إنه ينهل من نفحات النبوة، وينابيع الحقيقة الخالدة ..

ـ الأستاذ محمد المبارك ـ

أ ـ مالكـ بن نبـــي

مالك بن نبي (1905م ــ 1973م)، فيلسوف حضارة ومهندس جزائري ومهتم بالدراسات الاجتماعية، ولد بقسنطينة، حيث نشأ وأنهى تعليمه الثانوي وقضى فترة متنقلا بين قسنطينة وتبسة، قبل أن يرحل إلى باريس لإتمام مساره التعليمي العالي من أجل التخرّج هنالك بدبلوم الهندسة الكهربائية الذي حُرمه لأسباب. زار عددا من البلدان العربية من بينها مصر وسورية ولبنان. شغل مالك بن نبي بعد استقلال الجزائر منصب مدير التعليم العالي[1].

خلّف مالك بن نبي وراءه عددا من الأطروحات يلمس فيها القارئ جملة من المميّزات كالتنوّع والموسوعية والأصالة (الإبداع). وإضافة إلى نشاطه ككاتب، مارس بن نبي وهو في باريس نشاطاته الوطنية. وقد تميّز وهو في باريس على أقرانه من أفراد البعثات الطلابية التي قدِمت فرنسا من مصر وسورية وتونس

[1] راجع : [بن نبي، مالك : مذكّرات شاهد قرن، الناشر : دار الفكر ــ دمشق، ط2، 1969م]، [بن نبي، مالك : العفن (مذكّرات) الجزء الأول 19ج32م - 1940م، تر : نور الدين خندودي، الناشر : دار الأمة، ط1، 2007م]، [مسقاوي، عمر كامل : في صحبة مالك بن نبي (دراسة جامعة لحياته وإنتاجه في مراحلها الثلاث، الجزء الأول، الميلاد والنشأة والإنتاج الفكري)، الناشر : دار الفكر، دمشق، ط1، 2013م، ص 17 – 28 (عن نشأة بن نبي في الجزائر)]، [السحمراني، أسعد : مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، الناشر : دار النفائس، بيروت، ط2، 1986م، ص 13 ــ 19]، [طرابيشي، جورج : معجم الفلاسفة (الفلاسفة، المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون، المتصوفون)، الناشر : دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 2006م، ص 35] وإن كان المرحوم جورج طرابيشي قد سجّل في معجمه أن مالك بن نبي هو «من تلامذة ابن باديس» والحق أننا لم نعثر خلال قراءتنا لسيرة مالك بن نبي سواء (مذكرات شاهد قرن) أو (العفن) ما يؤكّد صحّة هذه المعلومة، بل إن حركة الإصلاح في الجزائر (جمعية المسلمين) والتي يُعتبر الشيخ ابن باديس رأسا فيها كانت موضع نقد لدى مالك بن نبي وأحيانا نقد حاد كما في (المذكّرات قيد الدراسة)، انظر على سبيل المثال [العفن / 45]، وسنطرق هذا الموضوع المتعلق بنقد العلماء بشيء من التفصيل في الفصل الثاني، إضافة إلى حديثه عن مثالب «الثقافة الإسلامية» التي ميّزت العلماء والاعتراف الصريح بعدم جدواها في تحريك عنصر (الإنسان) أهم موضوعات الإصلاح. لذ فالقول إن بن نبي كان تلميذا لابن باديس هو قول مستبعد استنادا إلى المصادر التي بين أيدينا. مع أن هذا لا يلغي حقيقة إعجاب واحترام وتقدير مالك بن نبي لشخص الإمام ابن باديس وكثير من مميزاته وهذا مثبت في ذات المصادر أيضا .

والمغرب والجزائر قصد إتمام الدراسة، تميّز عنهم بحسّه المزدوج، وقدرته على المقارنة الجوهرية بين العالمين الغربي والإسلامي وإدراكه لموقع كل منهما في مضمار التسابق الحضاري. وهذه الملاحظة التي ميّزت فكره نقرأها في كثير من النصوص[1].

والمتتبع لسيرة مالك بن نبي من خلال مذكّراته الموسومة بـ(العفن)، لن يتردد في التأكيد على أن حياته كانت انعكاسا تاما لأفكاره مما يضفي على فكره مصداقية، إذ لم توجد لديه تلك الفجوة بين الفكر المجرّد والسلوك الفعلي التي قد تَسِمُ حياة بعض الفلاسفة والمفكرين. فقد كان بن نبي كما كتب عنه صديقه المحامي عمر كامل مسقاوي مكافحا مجاهدا. ولم يكن ذلك الإنسان النظري المتفلسف بين أربعة جدران كالذي عابه نيتشه[2]. كابن عربي مثلا، حيث علّق عبد الرحمن بدوي، لما وازن بين حياته العملية ومعرفته الأنسكلوبيدية، قائلا «ليس في حياته (...) ما يدلّ على أنه حيّ شيئا من آراءه»[3]. وقد نبّه مالك نفسه إلى أهمية التجربة الشخصية في الجانب الفكري وذلك في قوله «هناك أشياء لا يُجدي الحديث عنها إن لم يكن مستمدا برهانه من تجربة شخصية تُضيء الموضوع من الداخل بضوئها الخاص» [4]، وقد تحدث وأشار إلى أن الصراع الفكري في البلاد المستعمرة [بفتح الميم] هو واحد من هذه الأشياء الخاصة. ولابد من الإشارة هنا إلى أهمية هذه النقطة، أعني أهمية التجربة الشخصية في تحديد معالم الفكر البنابي، وهو ما نبهنا إليه خصوصا في الفصل الثاني .

ب ـ فكـــــره ومؤلفاتــــه

لقد ترك الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي، عددا من الكتابات الممتازة بـ«الفائض اليوتوبي»[5]، وهذه الكتابات تشكّل سلسلة من الدراسات يجمعها شكلا ويصل بينها ضمنا (عنوان) و(موضوع) واحد جامع هو (مشكلات الحضارة). إن الإنتاج

---

[1] راجع على سبيل المثال : [العفن / 47، 48، 50، 101، 120] / [مذكرات شاهد قرن / 222]، [مسقاوي، عمر كامل : في صحبة مالك بن نبي، ج1، ص 18] .

[2] زكريا، فؤاد : نيتشه، الناشر : دار المعارف ـ مصر، ط2، دت، ص 19.

[3] بدوي، عبد الرحمن : الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، الناشر : وكالة المطبوعات ـ الكويت، دار القلم ـ بيروت، دط، 1982م، ص 105.

[4] بن نبي، مالك : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، دط، 1981م، ص 9 / ينظر أيضا : بن نبي، مالك : شروط النهضة، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر ، دمشق، دط/ 1986م، ص 8.

[5] (الفائض اليوتوبي) أو (الفائض المستقبلي) هي صفة جوهرية للفكرة (العظيمة)، التي لا ترتبط بمكان أو زمان محددين، «وهذا الفائض اليوتوبي هو القوة أو الطاقة التي تمنح أي ثقافة القدرة على إنتاج ذاتها في إبداعات وقراءات وتفسيرات جديدة تتواءم مع الواقع التاريخي المتغير والمتطور» راجع : حماد، حسن : آفاق الأمل (تحليل فلسفي لمشكلة الأمل) الناشر : دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة، دط، 1999م، ص 84 .

البنابي أكثره باللسان الفرنسي[1] وقد نقله المترجمون إلى اللغة العربية، وأبرزهم عبد الصبور شاهين وذلك بفضل تضافر جهود أصدقاء* بن نبي في القاهرة .

إن طريقة تفكير مالك بن نبي وكتاباته والقضايا التي طرحها كانت ـ في ذلك الوقت ـ غريبة على العقل المسلم، لذلك عدّها البعض «نشازا في الحقل الإسلامي»[2] بل عدّها البعض آخر «صدمة حقيقية في سائر الصُعَد الفكرية»[3] ومن أبرز المميزات التي جعلت فكره بهذا التأثير في الوسط الفكري هي نظرته (البانورامية)** في مقابل (النظرة الذرية) سمةُ الإنتاج الفكري الإسلامي وقتها، والتي قال عنها المستشرق جب إنها خاصية من خصائص العقل الإسلامي، وقد فنّد بن نبي هذا الزعم في كتابه (وجهة العالم الإسلامي)[4]، ومما يؤكد صحّة القول بأن (الفكرة البنابية) دخلت إلى ساحة الفكر العربي الإسلامي كاتجاه جديد موضوعا ومنهجا، المقال الذي أشار إليه الدكتور عبد السلام الهراس والذي نشره إحسان عبد القدوس في مجلة (روز يوسف) عام 1956م ـ وهو مقال مهم إذ من خلاله اكتشفَ الشرقُ مالك بن نبي ـ مما جاء في المقال على لسان عبد القدوس «لأول مرة أرى في حياتي رجلا عنده فكر جديد وجدير بالإنصات والكتابة»[5]، إلى آخر ما كتبه الروائي اللبناني عن دهشته لدى سماعه لأفكار مالك بن نبي أول مرة .

ويظهر هذا التجديد بجلاء من خلال المنهج الذي تناول به بن نبي القرآن الكريم في أول كتاب صدر له، وهو «الظاهرة القرآنية»، يقول أحد الباحثين مشيرا إلى تجديده

---

[1] ولد أباه، السيد : أعلام الفكر العربي (مدخل لخارطة الفكر العربي الراهنة)، الناشر : الشبكة العربية للأبحاث والنشر- بيروت، ط1، 2010م، ص 134.

* البنعيادي، محمد : مالك بن نبي في ذاكرة عبد السلام الهراس، الناشر : كتاب المجلة العربية، العدد 395، ديسمبر 2009م، ص 19، 20، 21 .

[2] ولد أباه، السيد : أعلام الفكر العربي، ص 135. / خندودي، نور الدين : مالك بن نبي.. العائد (دراسات ومقالات)، الناشر : عالم الأفكار ـ الجزائر، دط، 2008م، ص 3 .

[3] مسقاوي، عمر كامل : في صحبة مالك بن نبي، ج1، ص 67 .

** هذا التعبير استعرناه من الدكتور عدنان إبراهيم، ويُقصد بالرؤية البانورامية الرؤية الكلية أو الشمولية، التي لها القدرة على ربط الأحداث الجزئية ووضعها في سياق كلي من أجل فهم يكون أقرب إلى وقائع الأمور، بينما تكتفي الرؤية الذرية بالاهتمام بالأجزاء المنفصلة دونما أي ربط بينها، ومالك بن نبي كان من بين رجال الفكر الذين امتازوا بكلية النظرة، ونلمح في العبارة الآتية هذا المعنى عن الرؤية الشمولية الفوقية في قول عمر كامل مسقاوي «كزائر السماء الذي افترضه في رسم صورة كل من محور واشنطن - موسكو وطنجة - جاكرتا» والمقصود أنه لو لم يمتلك بن نبي تلك النظرة الفوقية الكلية التي تشبه نظرة زائر من السماء ما استطاع أن يحدد ذيْنك المحورين المتقابلين. راجع [في صحبة مالك بن نبي، ج1، ص 66]. وقد أشار كثير ممن درسوا الفكر البنابي إلى النظرة الكلية التي امتاز بها فيلسوف الحضارة، انظر [توبة، غازي : الفكر الإصلاحي عند مالك بن نبي (مقارنة ومناقشة)، مجلة رؤى، العدد 20، 2003، ص 85]، [خندودي، نور الدين : مالك بن نبي.. العائد : (فكرة الحضارة عند مالك بن نبي وتحديد المشكلة الإسلامية / نور الدين خندودي، ص 78] [مالك بن نبي حضارة الأشياء وحضارة الأفكار / عبد المحسن بن عبد الله التويجري، ص 130، 133] [المسيري ومالك بن نبي على خطى النهضة / عبد الله الطحاوي، ص 152]، [مقاربات في الفكر والمنهج بين محمد إقبال ومالك بن نبي / زكي أحمد، ص 173، 181] .

[4] بن نبي، مالك : وجهة العالم الإسلامي، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، ط1، 1986، ص 17 والتي تليها .

[5] البنعيادي، محمد : مالك بن نبي في ذاكرة عبد السلام الهراس، ص 17.

في منهج التعاطي مع القرآن الكريم «وقد دشّن مالك بن نبي من ناحية أخرى مسلكا جديدا في تفسير القرآن الكريم وتأويله في كتابه الظاهرة القرآنية... الذي قدّم فيه في الآن ذاته بوادر نهج تجديدي للدراسات الكلامية»[1] يضيف نفس الباحث في ذات السياق «يطرح بن نبي رؤية للإعجاز القرآني خارج المناهج البيانية والأسلوبية التي هيمنت على الدراسات القرآنية الكلاسيكية، وفي مقابل الأطروحات الاستشراقية الشكلية»[2] .

هذا ويصوغ مالك بن نبي في كتابه الثاني «شروط النهضة» نظريته في الحضارة على شكل معادلة حسابية على النحو الآتي :

الحضارة = إنسان + تراب + وقت[3]

/ الفكرة الدينية \

أفاض مالك بن نبي في شرح هذه المعادلة المكثّفة وأفرد لكل عنصر من عناصرها فصلا تحليليا يسلط الضوء على التفاصيل العامة لكل عنصر، مع تناوله لموضوعات أخرى ذات صلة كأصول الثقافة الأوربية والثقافة الشرقية مثلا، وقوله بـ(الذوق الجمالي) كموجّه للأولى وبـ(المبدأ الأخلاقي) كموجّه للثانية، وأثر تقديم وتأخير هذين المبدأين في تحديد نوع الثقافة[4]، مما ينم عن اطلاع واسع وعميق في كلتا الثقافتين، إلى غير ذلك من الموضوعات ذات الصلة بعناصر مركب الحضارة التي طرحها بن نبي في هذا الكتاب .

ومن كتبه أيضا «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة» الذي استعرض فيه أشكال ومستويات وعناصر هذا الصراع. لقد بيّن بن نبي في هذا الكتاب الفرق ـ الذي قد يكون ملتبسا في بعض الظروف الخاصة ـ بين الصراع الفكري والصراع السياسي، وبيّن تناقض مواقف الكتاب التقدميين من نفس القضية إذا اختلف نوع الصراع مما يثير استغرابا ويبعث ريبة بشأن حقيقة هذه المواقف[1]، وهو من خلال

---

[1] ولد أباه، السيد : أعلام الفكر العربي، ص 137.
[2] المرجع ذاته، ن ص .
[3] راجع : بن نبي، مالك، شروط النهضة، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، دط، 1986م، ص 44، 45، 50، 51، 52، 53، 54، 57، 58، 66 .
[4] المرجع ذاته، ص من 99 إلى 105.
[1] راجع : بن نبي، مالك : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص 10 على سبيل المثال .

هذا يحفزنا أكثر إلى التعمّق في فهم طبيعة العلاقة بين الغرب (موسكو ــ واشنطن) والشرق (طنجة ــ جاكرتا) .

ومن كتبه، كتاب «وجهة العالم الإسلامي» يُصدّر مالك بن نبي كتابه هذا بتنبيه يلفت فيه القارئ إلى أن المؤلف قد استفاد كثيرا من كتاب المستشرق الإنجليزي جب (الاتجاهات الحديثة في الفكر الإسلامي)، إضافة إلى الردود المتأدبة بالبرهان التي بسطها بن نبي في نفس السياق، تفنيدا لبعض الإطلاقات التي أصدرها جب بخصوص العقل الإسلامي (النزعة الذرية)، من أهم هذه الردود عقد مقارنة بين القانون الروماني (الملفّق) والقانون الإسلامي (الأصولي - أصول الفقه -) رفعا لتهمة الذرية عن العقل الإسلامي[2]. ثم ينتقل للحديث عن (مجتمع ما بعد الموحدين) و(إنسان ما بعد الموحدين) وعن أول اتصال حدث بين أوربا والعالم الإسلامي، وعن الحركة الحديثة، وفوضى العالمي الإسلامي وعلاقتها الجدلية بفوضى أوروبا الداخلية .

ومن كتبه الأخرى كتاب «الفكرة الأفريقية الآسيوية»، الذي قال عنه بعض الباحثين في سياق مقارنة بين المنهج البنابي ومنهج الإسلاميين وقتها «وفي مقابل أطروحة الخصوصية والتميّز ومحاربة «الغزو الثقافي» تبنّى بن نبي خط تحالف الثقافات وأمم الجنوب (الفكرة الأفريقية الآسيوية) إدارة لصراع دولي اعتبره استراتيجيا وليس دينيا»[3]. ثم أضاف نفس الباحث لافتا إلى بُعد نظر مالك بن نبي وفهمه الواقعي لطبيعة الصراع الفكري بين محور موسكو ــ واشنطن ومحور طنجة ــ جاكرتا في (الفكرة الأفريقية الآسيوية)، فكتب «... واعتبر أن محور «طنجة - جاكرتا» قادر أن يشكل مركز قوة هاما في المنظومة الاستراتيجية والعالمية*، ما ينمّ عن حسّ جيوستراتيجي ثاقب يتميّز بالواقعية والعملية، في مقابل الطوبائيات الأيديولوجية السائدة أوانها»[4] .

ونوع آخر من كتبه وهو الذي يدخل مجال اهتمامنا، أعني الكتب التي دوّن فيها مالك بن نبي سيرة حياته، مجموع هذه الكتب : كتابيْن. فالأول منهما، وهو الأبسط (الأوسع)، موسوم بـ(مذكّرات شاهد قرن)، هذا الكتاب مقسّم إلى قسمين، الأول قسم (الطفل) من سنة 1905م إلى سنة 1930م. والقسم الثاني قسم (الطالب) من سنة 1930م إلى سنة 1939م، حسب الطبعة الثانية لسنة 1984م الصادرة عن دار

---

[2] ينظر : بن نبي، مالك : وجهة العالم الإسلامي، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر ــ دمشق، ط1، 1986م، ص 17 والتي تليها .

[3] ولد أباه، السيد : أعلام الفكر العربي، ص 153 .

* راجع [بن نبي، مالك : فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر باندونج)، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر بدمشق، دط، 2003م، ص 55 - 73 (التعايش أو الوجود المشترك والاستعمار المشترك)]، [بن نبي، مالك : تأملات، الناشر : دار الفكر بدمشق، دط، 2002م، ص 95 - 121 (التضامن الإفريقي الآسيوي)] .

[4] المرجع السابق، ن، ص .

الفكر بدمشق. يُشير بعض الباحثين إلى أهمية (مذكرات شاهد قرن) بوصفها «وثيقة تاريخية للتطورات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية للمجتمع الجزائري خلال النصف الأول من القرن العشرين»[1] .

والكتاب الثاني من كتب السيرة الذاتية لمالك بن نبي، وهو موضوع دراستنا هذه، هو كتاب (العفن) Pourritures، الجزء الأول* منه، يغطي فترة من سنة 1932م إلى سنة 1940م. والكتاب عبارة عن مذكرات Mémoires تسرد أحداث واقعية عاشها مالك بن نبي في ضوء تحليله وتركيبه.

ولمالك بن نبي الكثير من الكتب التي لم نذكرها ولا أشرنا إليها لما اقتضاه المقام، ويمكن العودة إلى عناوينها بمختلف الوسائل .

---

[1] (الرميحي، محمد : مالك بن نبي المعرفة والقوة والاستعمار) واحد من المقالات التي جمعها نور الدين خندودي في كتاب (مالك بن نبي.. العائد)، ص 62.

* نتناول هنا الجزء الأول من مذكرات العفن الذي يغطي الفترة ما بين (1932 - 1940)، إذ أنه الجزء الوحيد من (العفن) الذي ألفيناه معرّبا، على ما امتدت إليه يد مطالعتنا، وقد حدّثنا الصديق عبد الله عدلي الذي أهدانا النسخة الورقية من هذا الكتاب، والتي ابتاعها من المعرض الدولي للكتاب بالجزائر العاصمة في طبعته الـ 21، بتاريخ 2016/11/01، أن الناشر قد أخبره عن اقتراب موعد صدور ترجمة عربية للجزء الموالي لمذكرات العفن، فلعلها إذا صدرت تناولناها بالدراسة أيضا.

﴿ 1 ﴾

(مذكـرات العفـن / الماهيـة والملابسـات والمحتـوى)

1 ـ 1 ـ المذكـرات قيـد البحث (الماهية والملابسـات)

1 ـ 1 ـ 1 ـ ما كتاب العفن (Pourritures Mémoires) ؟

1 ـ 1 ـ 2 ـ ملابساتها حتى الظهور

1 ـ 1 ـ 3 ـ إشارات بعض الباحثين في فكر مالك بن نبي إلى هذه المذكرات

1 ـ 2 ـ المذكـرات قيـد البحث (المحتـوى / المرحلة الأولى)

1 ـ 2 ـ 1 ـ التوطئة والمقدمة

1 ـ 2 ـ 2 ـ العنكبوت

1 ـ 2 ـ 3 ـ أول الضحايا

1 ـ 2 ـ 4 ـ رحيل والدتي

1 ـ 2 ـ 5 ـ الخونة ـ الأبطال على الدرب

1 ـ 3 ـ المذكـرات قيـد البحث (المحتـوى / المرحلة الثانية)

1 ـ 3 ـ 1 ـ المنبوذ

1 ـ 3 ـ 2 ـ الفوضى

1 ـ 3 ـ 3 ـ الحرب

نخصّص هذا الفصل المتكوّن من ثلاثة مباحث، للتعريف بـ(مذكرات العفن Pourriture) من حيث تاريخيتها ومضمونها. وذلك من خلال التعاطي معها من على مستويين؛ المستوى الخارجي (التاريخ والماهية). والمستوى الداخلي (المحتوى؛ وفقا لترتيب عناصر هذه المذكرات) .

يقتضي تناول المذكرات قيد الدراسة على المستوى الخارجي، التوقّف عند تفاصيل تاريخيتها (أو ملابساتها حتى الظهور أخيرا على الصورة التي بين أيدينا)، وخلال ذلك سنحاول تحديد ماهيتها، وإشارات الباحثين إليها وكل هذا ضمن المبحث الأول .

أما على المستوى الداخلي فسوف نقوم بعرض لمحتوى المذكّرات بشكل مختصر مكثّف يهدف لإعطاء نظرة عامة مبدئية فحسب، محافظين خلال هذا على ترتيب العناصر والأبواب كما هي في أصلها. وهذا ضمن المبحث الثاني والثالث معا، فالمبحث الثاني سيُعنى بالمرحلة الأولى من المذكرات، والمبحث الثالث سيُعنى بالمرحلة الثانية منها. ليُصبحا بمثابة صورة مصغّرة عن (مذكّرات العفن).

وسعينا للقيام بعرضٍ لمحتوى المذكرات كون دراستنا هذه، على حدّ علمنا، هي أول دراسة تتناول مذكّرات العفن كـ«موضوع أساس». ونقدّر أنه سيكون من المفيد إعطاء صورة عامة عن كتاب (العفن) تكون بمثابة واجهة وموجّهة لمن أراد قراءتها.

هذا وسوف نركّز على المسار العام والجوهري الذي يربط أحداث هذه السيرة وسنسقط كل ما هو عرضي من أحداث أو حقائق، وخلال ذلك سنقوم بعرض لبعض التفاصيل ذات الأهمية التي أثارها مالك بن نبي بخصوص شخصيات تاريخية رمزية في الذاكرة الجزائرية، وكذا عرض لآرائه في بعض الأفكار والنشاطات السياسية وقتها. مع إشارتنا إلى أساليب الاستعمار المستخدمة في محاربة المثقف المسئول والمدرك لواقع (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة)، والمناضل ضد (العفن) بنوعيْه : الاستعمار والقابلية للاستعمار على غرار بن نبي نفسه، وأخيرا سنعرض إلى كل نقطة نحس أهميتها التاريخية أو جدليتها مع الوضع الراهن .

1 ـ 1 ـ المذكـــــرات قيـــد البحـــث (المـاهيـة والمـلابسـات)

فقصة هذه النفس وتجربتها منذ عشرين سنة هي نفسها قصة هذا الكتاب..

ـ مالك بن نبي ـ

نتناول في هذا المبحث، مذكرات (العفن) من حيث ماهيتها وملابساتها حتى مرحلة الطبع، وإشارات الباحثين في فكر مالك بن نبي إليها .

1 ـ 1 ـ 1 ـ مـــا كتـــــــاب العفـــن (Pourritures Mémoires) ؟

كتاب (العفن) pourritures، هو «الاعترافات» أو «المذكرات» التي انتهى مالك بن نبي من تدوينها بفرنسا في 13 ماي 1951م [1]، وهذه المذكرات لم تظهر ـ على الأقل في نصّها العربي ـ إلا سنة 2006م بعد أن قام المترجم الجزائري نور الدين خندودي بنقلها من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. وانتهى من ترجمتها بالجزائر في 21 أكتوبر 2006م [2]. ولندع المترجم يحدثنا عن أول مرة تسلم فيها نص هذه السيرة : «كنت من الذين سمعوا أن للمفكر مذكرات لم ينشرها في حياته واختار لها عنوانا غريبا وقاسيا هو (pourritures) العفن،... رأيت أن أترجمها لما تضمنت من معلومات مفيدة. ما إن تسلّمت مخطوط المؤلف من السيد بن عمارة حتى أغراني تعريبه. ولم أصبر عن هذه الرغبة حتى أتيت على آخر صفحات الكتاب نقلا إلى العربية»[3] .

الملاحَظ أن (مذكرات العفن)، تكاد تتطابق مع القسم الثاني من (مذكرات شاهد قرن) في تأريخ فترة معينة من الزمن، المتمثلة في العقد الرابع من القرن العشرين، (1932 / 1940) من التاريخ الجزائري من زاوية بنابية، غير أن هذا لا يعني تماثلهما البتة، إذ لـ(مذكرات العفن) وجوه من الأهمية، أولها : أن هذه المذكرات تعتبر «صرخة ألم» كما قيل عنها أطلقها مالك بن نبي تحت الضغوطات والمآسي التي تعرّض لها في باريس والجزائر، سواء كانت هذه المصائب طبيعية كوفاة والدته على سبيل المثال، أو مصائب أخلاقية، كمتابعة الإدارة الاستعمارية له أينما حلّ وارتحل

[1] ينظر : العفن، ص 188.
[2] المصدر ذاته، ن، ص .
[3] المصدر ذاته، ص 7 .

ومحاولتها إنزاله إلى دركات التدهور الذي وقع ضحيته صديقه حمودة بن ساعي* جراء متابعة (مخبرات السموم السيكولوجية) الاستعمارية له. ومكْمن أهمية هذه (الصرخة) هو في مباشريتها وصراحتها، يقول الأستاذ عبد الرحمن بن عمارة في خاتمة تصديره للنص العربي من (مذكرات العفن) ((ولن أختم كلمتي دون أن أقول أنه لم يحصل يوما أن وافقت العبارة : ((أكتب بدمك وسترى أن الدم عقل)) بهذه الحدة والشدة مثلما جرى مع بن نبي. وهذا الكتاب أكبر شاهد على ذلك)) [1] .

ويضيف عبد الرحمن بن عمارة في السياق نفسه ـ ونرى أن قوله هذا على وجازته هو أنسب تعريف لهذه المذكرات ـ إنها ((المذكرات الصريحة لمالك بن نبي)) [2]. ونفهم من هذا القول : الإشارة إلى أن (مذكرات شاهد قرن) ليست بمذكرات تامة الصراحة، أو أنها تغافلت عن تفاصيل معيّنة، ويضح لنا هذا مباشرة من خلال مقارنة أولية بين المذكرتين، إذ إن هناك أمورا كشفت عنها (العفن) تخصّ شخصيات وأحداث هامة لا نعثر عليها في (مذكرات شاهد قرن) وهذه الدرجة من الصراحة التي تُميّز المذكرات الجديدة تُسجّل كوجه ثان من وجوه أهميتها. يقول المحامي عمر كامل مسقاوي متحدّثا عن طبيعة (مذكرات العفن) مقارنا إياها بـ(مذكرات شاهد قرن) في كتابه الضخم (في صحبة مالك بن نبي) ((إن أهمية الاعتماد على النص الذي كتبه بن نبي عام 1950م، أنه كتبَ المأساة بمداد من الألم وهو في جوف الحدث، في حين أن (الطالب) في (شاهد قرن) عام 1969م كان بن نبي قد استراح فيه من توتر المأساة وما تراكم من تجربة الخمسينيات والستينيات القاهرية والجزائرية على سواء في ظل الثورة والاستقلال كما في ظل الاستعمار)) [3] .

يمكننا أن نقول أخيرا إجابة على سؤال ماهية (مذكرات العفن) إنها "اعترافات" بخصوص / و "شهادة" على واقع (متعفّن) وأحداث مُعاشة وحقائق هامة في حياة مالك بن نبي، مدوّنة على شكل سيرة ذاتية، تقع معظم أحداثها في باريس والجزائر، خلال الفترة الزمنية ما بين 1932م - 1940م. وتظهر أهميتها الذاتية في كونها تمتاز بـ(الصراحة / صدق العاطفة / كشف تفاصيل هامة تتعلق بشخصيات جزائرية ذات أهمية / تسليط الضوء من زاوية جديدة على بعض الأحداث التي أثّرت في مجرى التاريخ الجزائري الحديث / الكشف عن ((مخططات العدو** وكيفية ترتيب أولوياته في التخطيط والتنفيذ)) / و((كيفية إدارة العدو لحرب الأفكار))، هذا عن أهميتها الذاتية. أما عن أهميتها الإضافية فهي تعتبر مفتاحا لفهم كثير من المواقف والأفكار

* المصدر السابق، ص 136، 145 والتي تليها .

[1] المصدر ذاته، ص 12 .

[2] المصدر ذاته، ص 9.

[3] مسقاوي، عمر كامل : في صحبة مالك بن نبي، ص 65 والتي تليها.

** يُقصد بالعدو هنا، الإدارة الاستعمارية .

في كتب بن نبي الأخرى، فبدون هذه المذكرات، لا يمكننا أن نفهم جيدا كتابه (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) على سبيل المثال لا الحصر .

أخيرا يقول مالك نفسه عن القصد الأهم من هذه المذكرات ‹‹إن هذا الكتاب شهادة أنوي تركها للأجيال القادمة (...) فأنا أرمي هذه الشهادة اذن في وجه ‹‹الأهالي›› (الأنديجين) في بلادي كشهادة احتقار وازدراء››[1] . فهو يوجّه شهادته اذن للأهالي المعاصرين له، ويتركها أيضا شهادة للأجيال القادمة، وها نحن اليوم بعد مرور أكثر من أربعين سنة على وفاة الكاتب نقوم بدراسة هذه الشهادة .

ويُلاحَظ أيضا (غرابة وقسوة) العنوان، وهو ما أشار إليه المترجم نور الدين خندودي ناقل هذه المذكّرات من الفرنسية إلى العربية، وقد اعترف بأنه لا يجد حيلة في تغيير العنوان، لأن مالك بن نبي أصر على هذا العنوان بالذات [2]، ‹‹وقد استهوتني عناوين كثيرة أَسِمُ بأحدها هذا الكتاب غير أني اخترت عنوانا يلخصها جميعا : "العفن"››[3]، لقد تعامل بن نبي مع هذا العنوان في أكثر من موضع في مذكراته، هذا وقد عثرنا على تلميحات إلى هذا المعنى في بعض كتبه الأخرى [4] .

1 - 1 - 2 ـ ملابساتـــها حتى الظهــور أخيـــرا [5]

تعتبر (مذكرات العفن) (Pourritures Mémoires) آخر كتاب لمالك بن نبي تصدر ترجمته العربية (حتى يومنا هذا). إذ قد تمّ اكتشاف هذه المذكّرات كما بيّنا سنة (2006م) وتمّت طباعتها في (2007م). والمدة الفاصلة بين وفاة بن نبي وبين ظهور هذه المذكرات هي بضع وثلاثون سنة (33) سنة. اذن هذا الكتاب من أواخر كتبه، بل هو آخرها إلى الآن، هذا من حيث من حيث النشر. أما من حيث الوضع (التأليف)، فتعتبر من أوائل الكتابات لصاحبها [6]. ومصدر هذا النص هو نسخة مكتوبة على الآلة الراقنة، كان قد أزمع القائمون آنذاك على مسجد الطلبة بجامعة الجزائر بنشره استجابة لطلب مالك بن نبي نفسه، ولكن وفاة هذا الأخير حالت دون ذلك .

---

[1] العفن، ص 18.

[2] المصدر ذاته، ص 7. يقول د. أحمد بن نعمان في تقديمه للكتاب ‹‹ولهذا كان التنبيه في الكتاب إلى تحديد وتوضيح معالم الطريق وكشف منابع الفتن وجراثيم ‹‹العفن›› التي شخصها الكاتب في مواطن الداء، أثناء سنوات التحصيل في الثلاثينيات، وواصل رصد تحركها ومتابعة انتشارها بعد الرجوع إلى أرض الوطن في الأربعينيات›› (تقديم د. أحمد بن نعمان) [العفن / ص IV] .

[3] العفن، ص 15.

[4] مذكرات شاهد قرن، ص 386. على سبيل المثال .

[5] راجع بالتفصيل الملابسات التي أحاطت بهذه المذكرات إلى أن رأت النور، [العفن / II ، IV ، 7 ، 9 ، 10 ، 11].

[6] ينظر : العفن، ص II .

لقد ذكر الدكتور عبد العزيز خالدي سنة 1948م ـ في تقديمه لكتاب ((شروط النهضة)) مشيرا إلى هذه المذكرات ـ بأنه ملزم بالإعراض عن التحدث عن ((سيرة عاصفة مؤثرة أعرفها في الجزائر))[1] ، ولكن بعد عامين ونصف من هذا التاريخ أي سنة 1951م قرر مالك بن نبي كتابتها مع نية حازمة لنشرها وسلّمها إلى الشيخين عبد الرحمن شيبان وإبراهيم مزهودي، بعد إلحاح منهما .

وكمرحلة أخيرة من مراحل تنقّل هذا المخطوط في سبيل الطبع، تسلّم الكاتب والمترجم نور الدين خندودي هذا المخطوط من السيد عبد الرحمن بن عمارة وأنهى ترجمته إلى اللغة العربية في 21 أكتوبر 2006م، وصدر في طبعته الأولى عن دار الأمة سنة 2007م، في ترجمة قال عنها الدكتور أحمد بن نعمان لدى تقديمه للكتاب ((كانت في مستوى قمة المؤلف ومحتوى الكتاب))[2] .

1 ـ 1 ـ 3 ـ إشارات لبعض الباحثين في فكر مالك بن نبي إلى هذه المذكرات

نذكر هنا عددا من الإشارات لـ(مذكرات العفن) سجلها بعض الباحثين في كتاباتهم ودراساتهم لما تناولوا مالك بن نبي. لقد سبق وذكرنا حديث المحامي عمر كامل مسقاوي عن (مذكرات العفن) في كتابه الضخم (في صحبة مالك بن نبي)[3]، فتلك إحدى الإشارات. وكذا إشارة الدكتور عبد العزيز خالدي في تقديمه لكتاب (شروط النهضة) وقد سبق ذكرها ((أجد بين يدي سيرة عاصفة مؤثرة أعرفها في الجزائر، ولكني ملزم بأن أدع الحديث عنها، لأن المؤلف قد منعني صراحة من مجرد الإشارة إليها))[4]. وكذا إشارة الدكتورة فوزية بريون في كتابها (مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة) إلى هذه المذكرات ضمن حديثها عن التزام دار الفكر بنشر الدراسات التي لا تزال مخطوطة لمالك بن نبي في قولها ((وما تزال دار الفكر حريصة على تتبع تراث بن نبي في كل أشكاله، وخاصة ما تركه مخطوطا أو أوصى بنشره. ومن المؤسف أنه بعد مرور أكثر من ثلث قرن على وفاته لم يُنشر من تلك المخطوطات سوى كتاب واحد اختار له الكاتب عنوان العفن، وبه توسع في سرد بعض الأحداث التي ضمنتها مذكرات شاهد للقرن، وقد نشر في أصله الفرنسي مع ترجمة عربية))[5] ثم تذكر الدكتورة فوزية في هامش المتن اسم المترجم ومعلومات

[1] شروط النهضة، ص 7 .
[2] العفن، ص IX (تقديم د. أحمد بن نعمان) .
[3] مسقاوي، عمر كامل : في صحبة مالك بن نبي، ص 65 والتي تليها.
[4] شروط النهضة (مقدمة عبد العزيز خالدي)، ص 7 .
[5] بريون، فوزية : مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، دط، 2010م، ص 243 .

نشر الخاصة بالنسخة العربية لهذه المذكرات (وهي نفسها معلومات النسخة التي بين أيدينا). ومن الإشارات كذلك ما نجده في المقال الموسوم بـ(مالك بن نبي عملاق يخشاه الاستعمار والاستبداد)، في الفقرة الآتية «بحث مالك بعد ذلك عن أي عمل يسد به رمق أهله في تلك الظروف القاسية، ولربما كانت هذه الفترة من أشد مراحل حياته سيذكرها ويدونها في كتابه العفن (Pourritures) »[1] .

ولقد لفت انتباهنا أيضا استعمال مالك بن نبي لبعض المفردات والعبارات في كتاباته الأخرى، تتفق وبعض الكلمات المفتاحية التي وردت في (مذكرات العفن)، على سبيل المثال كلمة (العنكبوت) وعبارة (الجو المتعفّن)، وهذه الكلمات نعثر عليها في حنايا (مذكرات شاهد قرن). مما يعبّر عن الحالة النفسية التي سيطرت على المؤلف بسبب الأزمات التي وقعت له. هذه بعض الإشارات ـ التي ذكرها الكاتب نفسه ـ وليست كلها .

[1] (مالك بن نبي عملاق يخشاه الاستعمار والاستبداد)، http://www.mohamedzitout.com/2013/10 .. بتاريخ : أكتوبر 2013م .

1 - 2 - المذكـــرات قيـد البحـــث (المحتــوى / المرحلة الأولى)

إني أعرض ببساطة أمورا أعرفها لأني عشتها، رأيتها وسمعتها وتأملتها..

ـ مالك بن نبي ـ

يتناول المبحث الثاني، التوطئة والمقدمة والمرحلة الأولى (الجزء الأول) من الكتاب المدروس .

1 - 2 - 1 - التوطئـــة والمقدمـــة

يستهل مالك بن نبي مذكراته هذه، بـ(توطئة ضرورية)، كما وصفها «إن هذه التوطئة ضرورية لتقديم فكرة عن الجو العام الذي تقع فيه المأساة التي تشغل كياني»[1]. وينتقل للحديث عن خصائص الفترة الزمنية (الانتقالية) التي ولد فيه، وهي فترة، في نظره، مؤذنة بانتهاء مرحلة قديمة وبداية مرحلة جديدة «فأنا أنتمي إذن إلى الجيل السيئ الذي يختم طور التحلل الذي ألمّ بالحضارة الإسلامية ويأذن لعصر جديد». هذا العصر الذي «يختلط فيه نوعان من «العفن» الاستعمار والقابلية للاستعمار»[2]، هذه القابلية للاستعمار المتجسّدة في (الأهالي indigène) بنوعيْهم نوع (الخونة الواضحين)، ونوع (الخونة المرفهين)، ويصرح بن نبي أن النوع الأول لا يمثل مشكلة حقيقية، إذ هو واضح ويمكن معرفته سريعا والتعامل معه يكون سهلا، عكس النوع الثاني الأدخل في باب (العفن)، هذا النوع من العملاء الذي أطلق عليه في مذكراته (الخونة - الأبطال)*، فهم خونة في حقيقة أمرهم، حسب بن نبي، أبطال في أنظار الغُفّل الذين رفعوهم إلى مصافّ الأبطال الوطنيّين، يذكرهم بن نبي بأسمائهم ويسرد تفاصيلهم في صفحات كتابه .

يختم مالك بن نبي هذه التوطئة، متسائلا «لماذا ولدت في الجزائر حتى أكون أحد إرهاصات النظام الجديد، وأصبح إنسان يواجه وحوش القابلية للاستعمار والاستعمار»[3]. ولكنه أخيرا يفوّض أمره إلى خالقه .

---

[1] العفن، ص 13.

[2] المصدر ذاته، ن ص .

* انظر إشارات إلى بعض هؤلاء من كتب المؤلِف [العفن / 113، 117، 126 والتي تليها]، [مذكرات شاهد قرن / 138، 145، 152، 158، 227، 412]، [الصراع الفكري في البلاد المستعمرة / 31]، [وجهة العالم الإسلامي 88] .

[3] العفن، ص 14. وقوله عن نفسه بأنه أحد إرهاصات النظام الجديد، له تأويليْن اثنيْن في نظرنا؛ فهو إما إشارة إلى جدّة مواضيعه التي سيطرحها ومنهجه الذي عالجها به. وإما أنه أحد رموز عصر جديد من الحضارة والفكر=

بعد التوطئة، يضع مالك بن نبي مقدمة، يصدّرها بفقرة أدبية معبّرة عن حالته النفسية المتخمة بالمعاناة، مشبّها نفسه بالنحلة التي امتلأ بطنها وتريد تفريغ ما فيه لترتاح من ضغط الامتلاء، يقول «رأيت أشياء كثيرة، منذ عشرين سنة. لقد شبعت لحدّ التخمة فأنا كالنحلة عندما تستبدّ بها الكظة من عسلها وتستفيض الجني وتدخر جنيها. للأسف فإن «العسل» الذي أضعه بين دفات هذه الصفحات مصدره ليس رحيق الزهور العبق ولكن خلاصة ما يختلج في نفس أريد لها التحطيم عبر الإكراه الجسدي والسم المعنوي»[1] ثم يشير إلى أن الواقع الذي عاشه هو ما أوحى إليه بهذه التسمية أي تسمية مُذكراته بـ(العفن)، ويقول إنه وجد في هذه الصياغة، عنوانا يلخص جميع ما رآه وتعرض له ويؤرّخ له هنا «ويوافق هذا العنوان الانطباع الأكيد الذي أحمله معي من متحف أو معرض يحويان وجوها وأشياء أعرفها منذ عشرين سنة»[2] ثم يذكر هذه الأشياء وهذه الوجوه : (المرفهين) أو النوع الثاني من الخونة، (أصدقاء المسلمين ـ ماسينيون ـ)، (أشياء القابلية للاستعمار)*، (الأهالي سكان المستعمرات)، (الاستعمار والإحسان المسيحي)، (الأسرار اليهودية)، (مخابر السموم السيكولوجية) .

بعد ذلك يلمّح مالك بن نبي إلى طرف من معاناته، ومعاناة أهله وزوجته**، ونظرة البؤس التي ارتسمت على وجه ابن أخته الصغير الذي عاش واقعا من المأساة. وهنا يسأل بن نبي قارئ الأنديجين (indigènes) «هل يستطيع القارئ المنتمي إلى الأهالي من سكان المستعمرات أن يدرك معنى النظرة الهادئة والثاقبة لصبي في الخامسة من عمره لم يتسن له أن يضع قطعة خبز في بطنه الخاوية قبل أن يذهب

له خصائص معينة يعتبر مالك بن نبي أحد أبرز ممثليها ورموزها في الوطن العربي. وقد كتب الأستاذ محمد المبارك في تقديمه لكتاب (وجهة العالم الإسلامي) أن «مالك بن نبي رمز لمرحلة جديدة» [وجهة العالم الإسلامي / 13] .

[1] العفن، ص 15.

[2] المصدر ذاته، ن ص .

* (القابلية للاستعمار) وهو من أهم المصطلحات والمفاهيم في القاموس البنابي، ولا يكاد يُذكر مالك بن نبي إلا ويذكر معه هذا المصطلح، وهو من أهم نظراته التي دوّنها في أطروحاته. هذا المفهوم أدى إلى اختلافات تأويلية كثيرة في الساحة الفكرية، بين مؤيد ومعارض. ونشير إلى أنه يمكن تقصي هذه الآراء في مؤلفات بن نبي وفي الدراسات التي أجريت حول بن نبي عموما وحول تأويل هذا المفهوم خصوصا، وتناولها في ضوء مذكرات العفن، التي تحمل الجديد والحاسم في هذا الشأن. انظر [العفن / VIII، IX] . يشير بعض المفكرين كالشيخ البوطي إلى مفهوم يشبه مفهوم القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي، وهو ما أطلق بـ (باطن الإثم)، وإن كان لعبارة البوطي صبغة دينية ومنحى وعظي إلا أن المتعمق في قراءتها يجد أنها تقترب إلى حد ما من المفهوم البنابي للقابلية للاستعمار في بعض الوجوه، راجع [البوطي، محمد سعيد رمضان : باطن الإثم (الخطر الأكبر في حياة المسلمين)، الناشر : دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة ـ الجزائر، دط، دت، ص 23 ـ 28] .

** سيذكر مالك بن نبي في كثير من المواضع في مؤلفاته وبالأخص في مذكراته، أثر زوجته السيدة بوليت فيليبون Paulette Philipon، التي تسمّت باسم (خديجة) بعد إسلامها تيمّنا بخديجة الكبرى زوج النبي عليهما السلام. قلت سيذكر أثرها في فكره عموما وذوقه الجمالي خصوصا، فأسلوب حياة السيدة فيليبون كربّة بيت ولمستها الخاصة وذوقها وذكاءها ومهاراتها المتنوعة هي من بين المؤثّرات العديدة المكوّنة للفكر البنابي، هذا إضافة إلى معاناتها بسبب أفكاره ودخولها السجن معه. راجع [العفن / 18، 107]، [مذكرات شاهد قرن / 236، 273] .

للنوم؟ وهل يمكن أن يدرك مدى وقعها على النفس..»[1]، وأن ابن أخته هذا هو أكثر الأجزاء مأساةً في قصة المعاناة، وأشدّها إثارة للشفقة، في هذا العذاب الذي عاشه هو وعائلته خلال عشرين سنة. حتى زوجته لم تنْجُ من مكر الإدارة الاستعمارية، يقول «زوجتي التي استُعملت هي الأخرى كوسيلة تعذيب مورس ضدي عندما عرفت المرض دون القدرة على استشارة طبيب ولا على اقتناء الدواء (...) فضلا عن أنها دخلت السجن معي»[2]، هذا ويعبر مالك بن نبي عن يأسه من هؤلاء المُستخدَمين استعماريا من أن يفهموا كل ما سبق من ضروب العذاب «أما محاولة تبليغه لفهم «الأهالي»»، ومنهم «العالم»، والدكتور والمنتخب، فمن ضروب المراهنة»[3] وينبّه إلى أنه لا يكتب إلى شعبه، هذا الشعب الذي رغم كونه طيبا فإنه للأسف لا يزال شعبا أميا (خاصة في تلك الفترة)، «فإني لا أكتب له بكل تأكيد»[4]، وإنما للأجيال القادمة، «إن هذا الكتاب شهادة أنوي تركها للأجيال القادمة»[5]. ولا يكتفي مالك بن نبي بالتركيز على القارئ المستقبلي المُفترض مع إهمال لمعاصريه المُقدّرين لتلك الفترة وما يحيط بها جيدا، بل يرى في معاصريه محك الصدق على ما دوّنه في مذكراته، فلو لم يشهد على كلامه وما جاء في مذكراته معاصروه، لتطرق إلى أذهاننا إمكانية المبالغة أو شيء من هذا القبيل بخصوص هذه المذكرات مما قد يؤثر سلبا على قيمتها الواقعية، فهي «شهادة لن تكون ذات قيمة إذا لم تعرض على معاصري كاتبها»[6] .

وفي ذيل المقدمة يوضح مالك بن نبي الطريقة التي اعتمدها في عرض الوقائع، وهي طريقة «التسلسل التاريخي»، وهي منهج يقوم على تناول الأحداث حسب موقعها في الخط الزمني، ويوضح بن نبي أهمية هذا الاختيار قائلا «إذ يبدو لي أن التواريخ ضرورية للوقوف عند بعض مراحل التطور وعند معنى المأساة..»[7] .

1 - 2 - 2 - العنكبـــوت

بعد أربعة أو خمسة أيام من إلقاء مالك بن نبي لمحاضرته الموسومة بـ(لماذا نحن عرب؟) «Pourquoi sommes-nous Arabes» في جمعية الطلبة، توجه إليه صديقه حمودة بن ساعي قائلا له «إن ماسينيون يرغب في لقاءك».. هذا الاسم (ماسينيون) الذي يقول عنه مالك بن نبي «لم أكن أدري ماذا سيعني هذا الاسم الذي

---

[1] العفن، ص 16.
[2] المصدر ذاته، ص 18 .
[3] المصدر ذاته، ن ص .
[4] المصدر ذاته، ن ص .
[5] المصدر ذاته، ن ص .
[6] المصدر ذاته، ن ص .
[7] المصدر ذاته، ص 19 .

نطق به للتو صديقي محمد بن ساعي من غير اكتراث، طوال حياتي وكيف سيؤثر في مصيري ومصير عائلتي»[1] أضاف بن ساعي أن بومنجل هو الذي أخبره وأكد له أن «أحدهم» هو الذي أخبره بذلك.. يرتب مالك بن نبي الأمور في ذاكرته بعد عشرين سنة من الحادث «ماسينيون* بومنجل** وغيرهما... لقد احتجت إلى سنين من التجربة المريرة لاستخلاص هذه العلاقة وإدراك مغزى هذا الـ«أحدهم» الذي استُعمل كمجرد ستار يحجب الصلة الفعلية بين المستعمِر والقابل للاستعمار»[2]. ثم يستطرد بن نبي بمناسبة ذكر بومنجل في ذكر نماذج من الخونة *** وكذا يعرض لنا تفاصيل «العالم الصغير للطبقة المثقفة لشمال أفريقيا» الذي تجسده العصبة الجزائرية المثقفة في باريس والتي منها خونةٌ سيُعرفون لاحقا بـ«أبطال الجزائر»، وكذا آخرون من العصبة التونسية، والعصبة المغربية. وبحكم من خالطهم جميعا وتعامل معهم فعرفهم حقا يلخص لنا بن نبي حال العصب الثلاث في هذه الفقرة «من بين هذه العصب الثلاث كانت عصبة التونسيين هي الأطهر وكان المغاربة أكثرها إثارة للإزعاج والشقاق، أما الجماعة الجزائرية فكانت هي الأقذر والأكثر خسة»[3]. هذا بالإضافة إلى مجموعة من الطلبة كانوا يرون أنفسهم بغير انتماء، ثم يتحدث عن جماعته**** المعتزلة، التي

---

[1] المصدر السابق، ص 22، 57. يمكن الاطلاع على كتابه (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) للتعرف على مزيد من أساليب الاستعمار في محاربة الوعي .

* Louis Massignon لويس ماسينيون : مستشرق فرنسي كاثوليكي (1883 – 1962)، مهتم بدراسة الأحوال الاجتماعية والأنظمة الاجتماعية للعالم الإسلامي على مرّ العصور، وعُرف خصوصا بدراساته في التصوف الإسلامي عامة، وفي الحلاّج خاصة، وقد اهتم بالأفكار الإسلامية واستهل بها نشاطه العلمي، وعُني بكل المشاكل العصرية في البلاد الإسلامية وبتاريخ النظم الاجتماعية في الإسلام. قام بعدة زيارات إلى بلدان العالم الإسلامي تمخّضت عنها أبحاث علمية، فقد زار الجزائر سنة 1901م، ومراكش سنة 1904م، والقاهرة سنة 1906م، والعراق سنة 1908م. راجع [بدوي، عبد الرحمن : موسوعة المستشرقين، الناشر : دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط3، 1993م، ص 529 ـ 535] هذا ماسينيون العالم المستشرق، غير أن المذكرات قيد الدراسة (Pourritures)، تكشف لنا عن جانب آخر من حياة هذا العالم، وهو الجانب المتعلق بنشاطه الاستخباري الاستعماري. أي ماسينيون مستشارا تقنيا للحكومة الفرنسية الاستعمارية، وهو الجانب الذي أشار إليه أيضا مصطفى السباعي في رسالته بقوله «مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال أفريقيا» [السباعي، مصطفى : الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، الناشر : دار الورّاق للنشر والتوزيع، ص 45] .

** بومنجل أحد أفراد النخبة الجزائرية في باريس، وقد كان عيْنا لماسينيون .

[2] أو، بعبارة أخرى «بين المُخبر الذي يتقمّص هيئة «العالم» و«الوطني» الذي سيُرفع ذكره ويُعلى من شأنه فيما بعد إلى منزلة «البطل» الجزائري» ص 22 .

*** العفن، ص 22، 23، 24، 25 .

[3] المصدر ذاته، ص 25 .

**** يقصد بجماعة مالك ن نبي هنا، هو نفسه، والأخوين بن ساعي (حمودة وصالح)، وابن عم مالك بن نبي علي بن أحمد، كان يربط هذه المجموعة اتفاقها على الرؤية والهدف العام، ووحدة الموقف، والطهارة الأخلاقية، مع اختلاف في طريقة التفكير ونهج السلوك لكل فرد من أفرادها .

تميّزت عن الآخرين جميعا، كما قال بن نبي، بـ«نزعة إسلامية توحيدية* تعزلنا أيضا عن الآخرين، من الجانب الأخلاقي على الأقل. وأظن أننا كنا فخورين بعزلتنا»[1] .

لما أُخبِر مالك بن نبي عن رغبة ماسينيون في لقاءه، وقد كان يجهل أن السبب هو الخطر الفعلي لنشاط جماعته على خيوط «العنكبوت»، كما وصفها، والتي كان ينصبها ماسينيون. في هذا الوقت، وتزامنا مع نشاط جمعية الطلبة المسلمين لشمال أفريقيا، والتي أثارت شكوك الاستعمار وقلقه، أخذت الإدارة الاستعمارية في بث البربرية واللاتينية والتنصيرية والفرْنسة في ربوع شمال أفريقيا، وكذا في أوساط الطلبة المهاجرين إلى فرنسا بتقسيمهم وتفرقتهم أدبيا وفعليا، غير أن بن نبي وبن ساعي** من حيث لا يشعران كانا قد أحبطا «جميع هذه المحاولات»، يقول بن نبي، متحدثا عن كل هذا وعلاقته برغبة ماسينيون في لقاءه، برمزية أدبية «أدركت أنه كان يريد أن يقابلني لأني كنت بمثابة الذبابة التي يزعجه طنينها والتي قد تقطع بأجنحتها نسيج بيت العنكبوت التي نسجها. إذ ليس المهم عند عنكبوت من فصيلة جيدة اصطياد الذبابة ولكن القبض عليها دون أن تمس خيوط بيتها بأذى. وأؤكد الأمر، فقد كنت أنا بمثابة تلك الذبابة التي كانت من دون وعي منها ربما، تهز بجسارة وتهور الخيوط الغالية لبيت العنكبوت»[2] لقد كان مالك بن نبي بوعيه (المتميّز) و(الفعّال)، يهز الخيوط المحبكة للإدارة الاستعمارية بجسارة وتهور دون أن يعي ذلك، ومحاضرة «لماذا نحن عرب» من أهم هذه الهزّات والتي قدّر خطرها جيّدا البروفيسور ماسينيون فقد كانت ضد آراءه التنصيرية والبربرية واللاتينية والمفرنسة على طول الخط هذا من جهة، ومن جهة أخرى سيلقى حمودة بن ساعي أيضا محاضرة في الجزائر العاصمة، بعنوان (السياسة كدرس من القرآن) التي أدرك بن نبي خطورة أثرها في تلك المرحلة، وهو يُعبر عن إدراكه هذا قائلا «وأنا أستحضر الآن ما لموضوع مثل هذا من تأثير ومن طابع ثوري بالمعنى الحقيقي للكلمة»[3]، ولا شك أن ماسينيون باعتباره «المستشار التقني للحكومة الفرنسية» لم يخف عليه ما للوضع من أثار تهدد «خيوط العنكبوت» المُحكمة، فكان لابد من المسارعة لإيجاد ردّ الفعل المناسب.

---

* عن الخلفية الدينية لمالك بن نبي راجع [العفن / 31، 44، 83، 100]، [مذكرات شاهد قرن / 261، 277، 306] .

[1] العفن، ص 25 .

** كان بن ساعي صديق مالك بن نبي المقرّب في باريس، وكان لأثره في بن نبي من الأهمية بمكان، وقد ذكر بن نبي ذلك في مذكراته خاصة المذكرات قيد الدراسة. راجع المبحث الثاني من الفصل الثاني، [أثر حمودة بن ساعي في مالك بن نبي] .

[2] العفن، ص 27. سيستعمل مالك بن نبي، لاحقا، مثل هذا التشبيه في مذكراته الأخرى، راجع [مذكرات شاهد قرن / 234، 240، 254، 240] .

[3] العفن، ص 41 .

وليس من الصدفة، كما فهم بن نبي، أن يبدي بومنجل (أحد الخونة - الأبطال) اعتراضاته في نهاية المحاضرة، ثم يخبره بن ساعي بعد أربعة أيام أو خمسة برغبة ماسينيون في لقاءه وأنه سمع هذا من بومنجل نفسه! فهذا له دلالة واضحة على علاقة المحاضرة بطلب اللقاء من جهة، وعلاقة بومنجل بماسينيون من جهة أخرى. والأدلة الأخرى المبسوطة في السياق العام للمذكرات تؤكد صحة هذا. غير أن بن نبي لن يُعنى بأمر الدعوة كثيرا، فلقد وصف حالته «الغرور أصابني وازدهاني لعدة أيام بعد نجاح محاضرتي. فقد أطاحت بمعارضة بومنجل لها...» لقد هوّن من الأمر كثيرا وكتب «ولم ألب دعوة ماسينيون»[1]. فتحركاته هذه إضافة إلى انتخابه نائبا لرئيس جمعية عامة طلابية، وإحباطه لجميع مناورات الإدارة الاستعمارية، كما قلنا، لفتت انتباه الإدارة الاستعمارية وأصبح بن نبي «شخصا يجب أن يخضع للرقابة». ويذكر لنا مالك حادثا قد يبدو عابرا، في نادي «اتحاد الشبان المسيحيين»* ولكنه يُنبئ عن انطلاق عملية المراقبة التي تكشّفت أول مظاهرها، لمّا سأله أحد رجال الشرطة داخل النادي عن إمكانياته المادية وموارده المعيشية، لقد بدا الأمر وكأنه مجرد لقاء يدرج ضمن إطار آثار المحاضرة، لكن الأيام القادمة ستبدي لمالك بن نبي أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحدّ، بل له صلة بدعوة ماسينيون .

هذا وقد كانت العصبة الجزائرية في حالة من غياب الوعي واللامسئولية، فكان حالها «من المؤامرات «السياسية» إلى دسائس الغراميات في غياب وعي تام عن الماضي والحاضر والمستقبل» في وقت كانت تسعى فيه الإدارة الاستعمارية إلى تقسيم طلبة الشمال الإفريقي**، وتضع كل جماعة في مكان معين، وذلك بأيدي الطلبة أنفسهم، وحالة «غياب الوعي» هذه، التي وصفها بن نبي، كانت أكبر معين للحكومة الاستعمارية في تنفيذ مخططاتها، غير أن بن نبي وبن ساعي طالما أحبطا هذه المحاولات، كما قلنا، من خلال «نشاطهما البريء» وهكذا «فقد كانت هذه الذبابة الصغيرة تفيض حيوية ولكنها غير واعية بالأخطار، تخرق كل مرة بجناحيها البريئين نسيج العنكبوت»[2] وعليه كانت النتيجة التي حصدتها الإدارة الاستعمارية خلال السنة الأولى هي الخيبة بفعل نشاط بن نبي، كما قال «باختصار فإن الإدارة لم تجن هذه

[1] المصدر ذاته، ص 30 .

* كان لانضمام مالك بن نبي إلى نادي ((وحدة الشبان المسيحيين))، أثره العميق في فكره عامة، وفي فهمه للديانة المسيحية والروح الغربية خاصة راجع [مذكرات شاهد قرن / 209 ، 210، 211، 212] .

** يُنظر أثر مبدأ التفرقة على من يقع عليهم فعل الاستعمار أو الاستبداد، وهو من أهم الخطوات لإنفاذ المخططات الاستعمارية والاستبدادية. راجع [الكواكبي، عبد الرحمن، تقديم : محمد خالد، الناشر : موفم، الجزائر، د/ط، 2011م، ص 22] .

[2] العفن، ص 33 .

السنة، إلا الفشل ولم تحصد إلا الخيبة في سياستها المتبعة تجاه «نخبة» شمال أفريقيا»[1] .

1 - 2 - 3 - أول الضحـايـــا

بعد هذه الأحداث الصاخبة في باريس عاد مالك بن نبي إلى تبسة لقضاء أول عطلة له، إذ لم ير عائلته منذ سنتين، ويحكي أنه ما إن وصل حتى وجد أحوال عائلته قد تغيرت جذريا «فوالدي الذي كان يشغل منصب خوجة منذ اثنتين وعشرين سنة في البلدية المختلطة لتبسة قد نقل فجأة إلى بلدية أريس»[2]. ويقول مالك إن باتيستيني* لمدير المتصرف هو الذي كان وراء هذا «الإجراء العقابي» ولكن حتى هذا المنصب الجديد لم يتمكن والد بن نبي من المحافظة عليه، نظرا لسوء صحة زوجته (أم مالك بن نبي) إذ «أصابها مرض أقعدها الفراش منذ خمس عشرة سنة وصحتها مهددة دوما بالانتكاس» ، في ذلك لوقت غاب عن بن نبي احتمال أن يكون تحويل منصب والده أحد الإجراءات العقابية التي استتبعت نشاطاته هناك بفرنسا «لم يكن لدي وقتها ميل لأفسر الأحداث التي حصلت لعائلتي بربطها بأسباب منهجية. فلم يكن لدي وعي بأي منهجية بعد»[3] بل كان يقول ببساطة وبراءة «يا لسوء الحظ !» .

رغم ما ألمَّ بعائلته من تغيرات جذرية تمكن بن نبي من استعادت طمأنينته حين رأى قناعة والده بأنه سيُعاد إلى العمل بمجرد أن يصبح هناك منصب شاغر له، وبسبب ابتسامة أمه التي لا تقهرها الصعوبات المالية التي تواجهها العائلة، يقول «فانصرفت مطمئنا إلى مراجعة الديناميكية الحرارية والميكانيك والمشتقات» .

في هذه الأثناء بلغ مالك بن نبي أصداء المحاضرة التي ألقاها صديقه حمودة بن ساعي بعنوان «السياسة كدرس من القرآن» في نادي الترقي بالجزائر العاصمة وقد ذكرنا تعليق بن نبي على محاضرة صديقه بن ساعي بخصوص ما لها من طابع ثوري. ويضيف أيضا بشأن أهميتها العلمية والتاريخية، في ذلك الوقت، بقوله «إنها شكلت في اعتقادي علامة فارقة في الحياة الجزائرية التي بدت لي معدمة فكريا

---

[1] المصدر السابق، ص 35 .

[2] المصدر ذاته، ص 39. سيربط بن نبي، لاحقا، هذا الإجراء بنشاطاته في باريس .

* الذي كان يقول بأنه يريد دفن القرآن، يعلّق بن نبي «ولم تكن مصادفة أنه تكوّن في مدرسة ماسينيون إذ كان يحضر دروسه بالفعل بباريس سنة 1931» [العفن / 39] .

[3] العفن، ص 40 .

وأخلاقيا»[4]. ومثل هذه التحركات التي لا تمتّ إلى الإندجينا* بصلة، كانت حَريّة بأن تجعل الإدارة الاستعمارية تدرك حجم هذا الخطر وتخطط لضربه بأساليبها الخاصة، فقد أصبح مالك بن نبي وصديقه حمودة بن ساعي ينشطان ويتصرفان بدون وعي منهما وببراءة تصرف «منقذي الجزائر» .

أخيرا حل موعد الرحيل من تبسة، ودّع بن نبي عائلته واتجه إلى الجزائر العاصمة، وهناك قصد نادي (الترقي)** بانتظار عودة الشيخ العقبي ليست طلع رأيه عن محاضرة بن ساعي (السياسة كدرس من القرآن) وهو من خلال ذلك إنما يستطلع رأي الإصلاح الجزائري عموما. فكانت «الصدمة» في إجابة الشيخ «بالفعل كانت محاضرة بن ساعي حسنة ولكنها كانت عبارة عن سرقة أدبية أو قل عدة سرقات أدبية مركبة» لم يُخفي مالك بن نبي دهشته من هذا التأكيد في وضوحه وخلوّه من أي تحفّظ أو تردد في الصوت أو في الحكم، ثم أردف الشيخ العقبي قائلا «إنني أؤكد أن بعض مقاطع المحاضرة لا يمكن أن تكون بقلم جزائري يحرر بالعربية. فلا نجد هذا الأسلوب إلا في المشرق». ولكن الحقيقة غير ذلك فمالك بن نبي يذكر أنه كان حاضرا مع بن ساعي أثناء تأليفه المقال في غرفة بفندق في باريس، وقد اكتشف بن نبي من ردود الشيخ العقبي ومواقفه الأخرى، وباقي العلماء، جملة من المثالب الفكرية والسلوكية التي ميّزت العقلية العلمائية. وأخيرا يسجل بن نبي انطباعه في نهاية المحاورة «لقد خار عزمي أمام هذه العقدة التي لمست فيها جملة من العيوب كالغيرة والكذب والدناءة»[2] والنتيجة «اهتزت ثقتي بالعلماء»[3] .

ولدى وصول مالك بن نبي إلى باريس، غيّر سكنه هو وزوجته السيدة (بوليت فيليبون) التي تسمّت بعد إسلامها باسم (خديجة)، «كانت زوجتي تخيط وتشدو وكنت أعمل وأذكر الله. ولم يكن للحوادث الخارجية تأثير على حياتنا في هذا الجزء الريفي

---

[4] المصدر ذاته، ص 41 .

* الأندجين Indigènes، موضوعيا تعني الكلمة : «الأهالي سكان المستعمرات»، ومنها اشتق بن نبي عدة استعمالات كـ (العقلية الأهلية) (والحكمة الأهلية) ...الخ، وهذه الاستعمالات تعكس إيحاء سلبيا هو المقصود غالبا عندما يُستعمل لفظ (الاندجين). ويمكن اعتبار الانديجينا كلمة جامعة للخصائص السلبية التي ميّزت سكان المستعمرات، هذه العقلية التي تشكل في مجموعها المفهوم البنابي الشهير (القابلية للاستعمار) فهو يربط بين الأهلية والقابلية في رسالته الملحقة بمؤلف الدكتور عمر بن عيسى «الأنديجيني Indigène القابل للاستعمار» [بن عيسى، عمر : مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي، الناشر : دار الفكر بدمشق، ط1، 2007م، ص 92] .

** ننقل هنا معلومة بالغة الأهمية، بخصوص واضع النشيد الوطني، (مفدي زكريا)، في اللحظات التي كان مالك بن نبي ينتظر قدوم الشيخ العقبي داخل نادي الترقّي، لفت انتباهه أحد الشباب من بني ميزاب «وأذكر جيدا أحد أبناء ميزاب الذي أدهشني بثقافته الغربية. وبحسب علمي فإن وسط بني ميزاب لم يكن قد أمد الجزائر بمثقفين بعد، فاندهشت. هل يتعلق الأمر بمفدي زكرياء، البطل الوطني لاحقا، عميل المكتب الثاني؟ ربما» [العفن / 43]. والمكتب الثاني، هو فرع من المخابرات الفرنسية. انظر في الهامش [العفن / 30] .

[2] العفن، ص 46. خصصنا المبحث الأول من الفصل الثاني لمعالجة آراء مالك بن نبي النقدية للخصائص النظرية والعملية للعلماء الجزائريين تحت مصطلح (العلمائية) .

[3] العفن، ص 46 .

من باريس))، لم يكن بن نبي يغادر منزله الجديد إلا مساء كل سبت، ليخفف بذلك من ضغط الدراسة والمذاكرة، وكان يقصد خلال استراحته مقهى (الهقار) الذي فُتح بالحي اللاتيني فيجد هنالك ألوان الحياة الجزائرية* تتكرر كما هي في موطنها الأصلي في شخوص العمال والطلاب وغيرهم، فيعود إلى بيته دون أن يقنع العامل أن يكون أقل خضوعا لمقتضيات الأنديجينا، والطالب أن يكون أكثر فكرا وأطهر أخلاقا وأكثر فاعلية اجتماعيا. وهذا وقد كانت أطيب أوقاته يقضيها في مقر إتحاد الشبان المسيحيين. والذي تم الاتفاق فيه المرة على إنشاء ودادية ((حيث تحمست جماعتنا للمسائل الخاصة بالشمال الأفريقي إلى حد أن حصل اتفاق لإنشاء ودادية فرنسية ـ شمال أفريقية))، وليس من الصعب الحدس بأثر إنشاء ودادية مثل هذه على مصالح الاستعمار، لأن هذه المرة سينطلق وعي مسيحي ـ فرنسي من داخل كيان الحكومة الاستعمارية، ينظر إلى الوضع الشمال أفريقي من زاوية غير التي اعتادتها الذهنية الاستعمارية، وقد كان هذا ما استخلصه بن نبي ((لم يكن سرا، بطبيعة الحال، أن جماعتنا تهدد جديا بكشف الاستعمار وإظهار حقيقته أمام النزهاء من الفرنسيين))[1] فهو كشف لحقيقة الاستعمار أمام الضمير المسيحي بأيدي فرنسية .

وعودة إلى تأثيرات نشاط مالك بن نبي على عائلته، ولدى لقائه وتعرّفه ومشاركته هذه المرة مع مصالي الحاج، يقول إنه لم يحكم بالشقاء نهائيا على والده في منطق الإدارة الاستعمارية، إلا يوم ((لقاءه بمصالي الحاج وبعض أصدقائه في مقهى بباريس)) . وبطلب من مصالي تم اللقاء بالفعل مساء يوم سبت، في إحدى الغرف فوق مقهى (الهقار). جرت أحداث اللقاء على أحسن ما يُرام . وصف مالك نفسه عند انتهاء اللقاء ((وكان حماسي فياضا وأنا أغادر الهقار وكأني فارس شاب خاض معاركه للتو)). ولم يُخفِ بن نبي تعاطفه مع مصالي، الذي بدا له مرحا وودودا. على أية حال فقد انبثق عن هذا اللقاء، (نجم شمال أفريقيا)**، وكذا قد آذن اللقاء بميلاد ((الوطنية الجزائرية)) على حد تعبير مالك بن نبي .

بعد أسبوعين من اللقاء الأول، جرت أحداث اللقاء الثاني، وقبيل هذا عرض مالك بن نبي الأمر المشاركة مع مصالي على الأخوين بن ساعي (صالح وحمودة)، غير أن أفكاره ((لم تثر فيهما أي حماس)). تم تكليف مالك بن نبي بإعداد مسرحية والتي ستُمثل على خشبة المسرح بمناسبة (التظاهرة الرسمية الأولى لـ"نجم شمال أفريقيا") . وعلى عكس اللقاء الأول لم يشعر بن نبي بالارتياح هذه المرة، ويذكر

---

* ((كنت أذهب إلى ((مقهى جزائري)) وهو مقهى ((الهقار)) الذي فتح بالحي اللاتيني، فأجد هناك ألوان النميمة والتفاهات وتناقضات الحياة الجزائرية وبشاعتها وعفونتها ....)). يُراجع النص بالكامل [العفن / 51] .

[1] العفن، ص 54 .

** هو الحزب الوطني سابقا، والذي أسسه الأمير خالد بباريس سنة 1927م، وقد أعيد تشكيله باسم ((نجم شمال أفريقيا)) [العفن / 59] .

سبب ذلك ما رأى من ‹‹الخمر توزّع في هذا الاجتماع››، وبالرغم من ذلك فقد تم تمثيل المسرحية بنجاح ولعب بن نبي فيها دور (كاتب المدير)، ثم جاء دور السياسة، فعبر مجموعة من الخطباء وكان مصالي الخطيب الثالث، وقد خلّف انطباعا حسنا لدى مالك بن نبي ‹‹أعجبني كلامه وأعترف أن له إلهام أسمى من الذي لاحظت حتى الآن في الكلمات التي تتضمنها خطب مُثيّقفينا››. بل قد تعدى الأمر مجرد الاستحسان أو الإلهام إلى الاستيلاء الكلي، إذ قال بن نبي ‹‹لقد أعجبني واستولى علي كلية عندما قال: "هناك رجال سامون ولكن ليس هناك شعوب سامية"››[1]. ثم تكررت تلك المشاهد التي أثارت انزعاج مالك بن نبي، ولم تكن إلا لتعبر عن غياب صفاء سيؤثر على المهمة المنتظرة من الوطنيين، فرأى ‹‹هزّ البطن المقيت››، يروي ذلك ‹‹جال بي البصر برهة نحو ما يشبه شرفة كانت فوق الموقع الخلفي للمسرح حيث كانت الراقصة تؤدي حركاتها والتواءاتها. لمحت مصالي وصديقه... كانا يُطلان على المشهد››* كان هذا ضمن ما سجله بن نبي من مظاهر (العفن) عند الوطنيين. لم يطق المكوث أكثر، فقد أثّرت عليه المشاهد المتناقضة التي رآها توا فغادر المكان هو وزوجته .

تمكن بن نبي بعد ذلك من إقناع الأخوين بن ساعي بفكرة ربط صلاتهما بـ(الوطنية) فاقترحا عليه أن يتوجه بطلب إلى مصالي الحاج، وأن يحثه على ‹‹استعمال نفوذه ووسائله باعتباره زعيما وطنيا، لإنشاء مدرسة مسائية بباريس›› تُوجّه لتعليم إخوانهم الأميّين.. وعد مصالي بتنفيذ الطلب، ولكن شيئا من وعده لم يتحقق، فازداد تحفّظ الأخوين أكثر من ذي قبل. وإن كان في استطاعة مالك بن نبي أن يبرر الأمر لصالح مصالي بحسن نية إلا أنه كان مدركا بعمق أثر سياسة البوليتيك** في توجيه الوطنية الجزائرية.

1 - 2 - 4 - رحيـــل والدتـــي

يتحدث مالك بن نبي في هذا الجزء عن الأجواء الجديدة التي وجدها في البيت لدى عودة والديه من رحلة الحج ‹‹بدا لي البيت الذي كنا نسكنه... وكأنه يشع نورا

---

[1] العفن، ص 62 .

* يؤمن مالك بن نبي بأثر الاستقامة في الحياة الشخصية على الجانب الفكري للإنسان، وقد أشار إلى هذا المعنى في بعض كتبه، بقوله ‹‹فالذكاء يتبع دائما حال النفس، فإذا ما فقدت النفس صفاءها فقد الذكاء عمقه›› [وجهة العالم الإسلامي / 84] .

** يفرّق مالك بن نبي بين الـ Politique والـBoulitique، فالأولى ما يُنجز، والثانية ما يُقال. أما عن معنى البوليتيك فيقول نور الدين خندودي ‹‹كلمة بالعامية الجزائرية استخلصت من تحريف كلمة Politique ويقصد بها بن نبي السياسة العقيمة التي تغيب فيها الفعالية وتبنى على الكذب والخداع والدجل، يحترفها المرتزقة والمشبوهون والجهلة، ويفرّق بينها وبين السياسة التي يعتبرها علما ترسم أهدافا وتجند وسائل ولا تخطئ إلا في حدود خطأ العلم. والعبارة من مفردات قاموس الفكر البنابي›› انظر هامش [العفن / 111] .

وأنه أكثر ضياء، وكانت أجواء مكة والمدينة حاضرة تحت سماء تبسة التي ظهرت لي أكثر إشراقا». هذا وقد حدثته والدته التي تميّزت بفن نادر في الرواية، وكان لها حسّ ثاقب في الملاحظة وعمق في الشعور ووضوح في الفكر، فكانت حكاياتها تسحره ـ كما يقول ـ أو تثير شفقته وزيادة على ذلك كان يتعلم منها كثيرا بخصوص أجواء مكة والمدينة والدولة السعودية الفتية، فأخبرته عن أنظمتها الداخلية ومظاهر عدالتها، وأنها (أي الدولة السعودية) في نظر أم مالك بن نبي، تطبق شريعة الله المقدسة .

بعد هذه الجلسة والحديث عن الرحلة المكية، خرج بن نبي من البيت ذلك المساء واتجه إلى درس كان يلقيه الشيخ الإبراهيمي في ساحة الولي سيدي بن سعيد، وهنا يسجل رأيه الخاص عن الشيخ الإبراهيمي وقتئذ، فقد رآه «للمرة الأولى أقل تشبها بالقدامى من «العلماء» الجزائريين. وقد أعجبتني بلاغته. ولكني لاحظت على الخصوص نباهة عقله التي كانت تمس مشكل اجتماعي لم يكن بمقدور أي «عالم» أن يجاريه كما أتصور. فقد تكلم عن التربية بكثير من اللباقة والدقة»[1]. ورأي مالك بن نبي عن الإبراهيمي من الناحية الفكرية يتوافق مع رأيه في مبارك الميلي[*] من الناحية السلوكية، إذا نظرنا إلى موقفه النقدي العام من العلماء والذي تقصيناه ورتبناه وبسطناه في المبحث الأول من الفصل الثاني .

وعودة إلى أمه فقد قالت له قبيل موعد مغادرته البيت من جديد إلى باريس «أي بني ها هو موعد عودتك قد اقترب. فهل ستلقاني السنة القادمة؟» فتحدث إلى أمه وطمأنها ولكنه رغم ذلك انتابه نوع من القلق «غير أن قلقا مبهما سكنني بعد هذا الحديث». وقد كتب عن لحظة مغادرته «اجتزت عتبة المنزل وأغلقت الباب دون أن أحس بأني أصبح بعيدا جدا عن والدتي التي لن أراها أبدا في هذه الحياة الدنيا» وفعلا بعد قدوم بن نبي بعد هذه الرحلة الدراسية إلى باريس، فوجئ خبر وفاة أمه، وكان لوقع الخبر على نفسه أثر عميق آلمه بشدة، يتحدث عنه في نهاية هذا الجزء[**] .

1 ـ 2 ـ 5 ـ الخـونة ـ الأبطـال علـى الدرب

يتحدث مالك بن نبي في هذا الجزء عن الوفد الجزائري الذي قصد باريس، وعن رفض شوطان Chautemps استقباله، وما نجم عن هذا الرفض من ردة فعل تمثلت في استقالة جميع العمال المسلمين في الجزائر، ويصف مالك بن نبي ردّة الفعل

[1] العفن، ص 74 .

[*] المصدر ذاته، ص 166 .

[**] راجع [العفن / 86] .

هذه بأنها «أول عمل سياسي بهذا الحجم يُسجّل في الجزائر»[1]. أي أن هذا العمل السياسي لم يكن من قبيل السياسة العقيمة (البوليتيك)، هذه السياسة التي تجسّدت في بن جلول وبومالي وغيرهم ممن صنّفهم في خانة (الخونة ـ الأبطال) .

والدكتور بن جلول رأس هؤلاء، يقول بن نبي عن زيارة استطلاعية قام بها إلى عيادته «وطأت قدماي عيادة الدكتور بن جلول، كنت لا أزال أشعر بالإحساس الذي يواجه الإنسان وهو يقابل شخصية كبيرة ذات وزن وقيمة، أو حتى الشعور الذي ينتابه عند لقاء "قاطع طريق كبير"»[2] وعلى القارئ أن ينتبه لهذه الدلالات الإيحائية في تحديد موقف بن نبي من بن جلول ومنه من البوليتيك الجزائري. ينتهي بن نبي أخيرا إلى «خيبة تامة» على حد تعبيره، بعد هذا اللقاء «فقد بدا لي الرجل عاديا في تفكيره وحركاته. ففي هذه العيادة التي ستصبح لعشرية كاملة القلب النابض للبلاد، رأيت المثقف «الأهلي» (indigène) الأكثر فظاظة في حياتي. الخطة لانتخابية كانت أسمى أفكار هذا الرجل السياسي الكبير. رأيته محاطا بمساعديه فرحات عباس وآخرين، والكل منحن ومنكب على حساب عدد الأصوات التي يمكن أن تمنحها هذه البلدة أو تلك. عجبت لرجل ولد ليملأ الكلمات المتقاطعة في صحيفة وضيعة وملء الفراغات في ألعاب الجرائد، كيف أصبح قائدا لبلد رهنت مستقبلي ومستقبل عائلتي في سبيل مستقبله». وهذا النص يلخص لنا، على العموم، رأي مالك بن نبي في النشاط السياسي العقيم ورموزه وقتذاك. مثل هذا النشاط الذي كان يخدم الإدارة الاستعمارية، التي يُعدّ من صالحها الإبقاء على مثل هؤلاء الذين كان هدفهم الأول (الأصوات الانتخابية)، قلنا على العموم لأن مالك بن نبي كان يرى، على الأقل، في المصالية (نسبة إلى مصالي الحاج) خطرا أقل على الإسلام في الجزائر من البنجلونية (نسبة إلى بن جلول) «وعلى أية حال فإن المصالية أقل تعريض المستقبل للخطر من البنجلونية التي تجلت مرة أخرى روحها المجافية للإسلام»[3] .

ولا يفوتنا ذكر حدث مهم سجله بن نبي، في باريس مع صحبة أصدقاءه من المسلمين والمسيحيين، فقد اجتمعوا في محاضرة لماسينيون، وبعد أن أنهى هذا الأخير محاضرته، طلب ابن عم بن نبي، وهو علي بن أحمد، الكلمة على الفور، وكان طبع هذا الأخير استفزازيا، «إذ وصف ماسينيون، دون مواربة، بالكذاب». فاحتج الحضور في القاعة، من مسلمين ومسيحيين، يقول مالك بن نبي «فتدخلنا نحن المسلمين إلى جانب المسيحيين ضد صديقنا» فما كان على بن نبي إلا أن يستجيب لطلب بن ساعي بأن يقوم ويطلب الكلمة ويصلح من زلة علي بن أحمد، وفعلا تكلّم مالك بن نبي

---

[1] المصدر السابق، ص 88 .
[2] راجع تفاصيل الزيارة [العفن 92 والتي تليها] .
[3] العفن، ص 113 .

وأجاد، ووفّق في إصلاح غلطة قريبه، ولكنه فكّر في الأثر الذي ستحدثه خطوته هذه على مصير عائلته «كانت ملامح ماسينيون الدكناء وهو مازال يبتسم، بينما راح الإخوة بن ساعي يثنيان عليّ مهنئين «بموقفي المثير للإعجاب». فكرت في والدي الذي زدت وضعه سوءا للتو..» .

ويحكي كذلك عن موقفه في السفارة المصرية بباريس، حيث تقدم لطلب جوازيْ سفر، له ولزوجته، إلا أن مسعاه هذا قد باء بالفشل، وأدرك أن لـ«شبكة العنكبوت» (الإدارة الاستعمارية) امتدادها في هذا المكان أيضا. كان لجوءه للسفارة من أجل الحصول على جواز سفر بمثابة هروب من الوضع المأساوي الذي يعيشه بباريس والمضايقات المستمرة من طرف الإدارة الاستعمارية (ماسينيون) خاصة فيما يتعلّق بالعمل. وما قصده للسفارة المصرية إلا واحدة من المحاولات الكثيرة التي قام بها بغية الفرار من هذا العذاب. ومع ذلك قُدّر له البقاء عاما آخر، فاستغل الفرصة ليتم دراسته من أجل الحصول على شهادة مهندس، والتي سينقطع رجاؤه في الحصول عليها لأسباب ليست ببعيدة عن تخطيط (الإدارة الاستعمارية) وبعبارة أخرى (ماسينيون) .

وكذا يحدثنا عن رحلة الوفد الذي ضم أشهر علماء الجمعية، كابن باديس والإبراهيمي، هذا الوفد الذي تم توجيهه للنزول بفندق كبير لم يكن هذا التوجيه عبثيا في منطق الاستعمارية، ففندق «تنزل فيه فاتنات وغانيات ومن رواده أصحاب الملايين لا يصح أن يكون مكانا لـ«عالم»، أو قسيس أو حتى رجل سياسة محترم»[1]. ويحكي لنا تفاصيل المشهد العلمائي بالداخل «وقد أحسست بأن ملاحظتي كانت تحرج ابن باديس كثيرا دون أن ينبس بكلمة (...) بينما جلس الإبراهيمي بحذر منزويا عن جماعتنا»، ثم ظهر بن جلول بصحبة مندوبة جميلة يتشاركان شرب الكحول، هته المشاهد جعلت مالك بن نبي يشعر بالأسف على الوضع، ويعلن يأسه التام من العلماء.

[1] المصدر السابق، ص 116 .

1 ـ 3 ـ المذكـــرات قيـــد البحـــث (المحتـــوى / المرحلة الثانية)

إن الأقدار كانت مني على الدوام في موقف لا ألين معه إذا قسا الظرف،
وأقسو إذا لان..

ـ مالك بن نبي ـ

يتناول المبحث الثالث من الفصل الأول المرحلة الثانية (الجزء الثاني) من الكتاب قيد الدراسة .

1 ـ 3 ـ 1 ـ المنبـــــوذ

يستهل مالك بن نبي المرحلة الثانية من مذكراته بالحديث عن «خيبة أمله الكبرى» المتمثلة في حرمانه من (الشهادة) من المدرسة الخاصة للميكانيكا والكهرباء، بل قد امتدت هذه الخيبة لتشمل آفاق أخرى من حياته «وبالفعل لم أنل شيئا إلى يومنا [خمسينيات القرن الماضي] وينتابني خوف رهيب عندما أرى الغنى يُهدد آفاقي الشخصية. فالدعاء الذي دعوته من ست عشرة سنة خَلَت أصبح نوعا من اللغز، ونوعا من القدر المحتوم». وكان يقول في هذا الدعاء «إلهي، إني لا أريد نصيبي في هذه الدنيا، بل أريده في الآخرة» .

تقدم بن نبي إلى مكتب المدير، بعد نجاحه في الامتحان في جوان 1936م، وقد كان من الطلبة النجباء في دفعته، استقبله المدير على عادته، إلا أن تغيُّرا ما لم يخف على مالك بن نبي «لاحظت توا بأن ابتسامته المعهودة غابت هذه المرة عن قسمات وجهه» ظنّ مالك بن نبي أن سبب هذا تعب العمل الذي يلحق فترة الامتحانات، ثم خاطبني ـ يقول بن نبي ـ «بكل برودة، واقفا لينبهني إلى الدقائق الثمينة» قائلا «السيد بن نبي لم يظلمك أحد في هذه المدرسة، أليس كذلك؟» كان لهذا الردّ وقع «الماء البارد، أو الصعقة الكهربائية» هكذا شعر مالك في تلك اللحظات إزاء رجل طالما اعتبره «رجلا قديسا» لا يليق به أن يتورّط في مثل هذه الدسائس، «فأدركت أن تأثير ماسينيون وصل إلى المدرسة»، لم يكن باستطاعة مالك بن نبي أن يضيف شيئا «حيّيته بإيماءة وقلت قبل أن أغادر: استسمحكم سيدي المدير» .

لم تستهدف الإدارة الاستعمارية بهذه الإجراءات العقابية المتتابعة، مجرّد شخص مالك بن نبي، بل كان الهدف هو محاصرة وعي ما، والإطاحة به بعد استنزاف حامله ماديا ومعنويا، بأكثر الأدوات (نعومة)*، كما قال بن نبي «لم تستهدف في شخصي مجرد فرد مستعمر من الأهالي، بل قضية أخرى أكثر دقة. فقد كان المعنى هو ضرورة توقيف نفس وضمير وذكاء في الحال»، وقد كان لهذا الأمر** على نفسية بن نبي وقع «الضربة القاسية» ولعلنا نفهم هذا جيدا إذا عدنا إلى الوراء قليلا لنضع في الحسبان فشله في استخراج جواز السفر من السفارة المصرية وكيف أنه تقبل الأمر معزيا نفسه بأنه سيبقى عاما آخر في باريس يستغله في «الحصول على شهادة مهندس» من مدرسة الميكانيكا والكهرباء، وها هو العام قد انقضى ولم تسلّم له الشهادة ظلما، كأحد الإجراءات العقابية، «كانت الضربة قاسية. فقد تم المساس بكبريائي الشرعي وبمصالحي المادية بعد ما أجلت سفري حتى أسلح بشهادة رسمية كوثيقة ضمان» .

ومن جهة أخرى كانت الأحداث تتسارع في الجزائر، وفكرة السفر إلى المشرق لم تفارق مخيلة بن نبي، وقادته المصادفة ليلتقي هناك في باريس بوفد جامعي قدم من مصر، كان من بينهم الشيخ عبد الله دراز الذي سيضع لاحقا تقديما باللغة الفرنسية لأول كتب مالك بن نبي «الظاهر القرآنية» (1946م)***. وكان بن نبي يقدم دروسا في اللغة الفرنسية لبعض أعضاء البعثة المصرية وقد وعدوه بالمساعدة كي يتمكن من الحصول على التأشيرة «مع هذه المساعدة التي افتقرت إليها السنة الماضية، كنت متيقنا تقريبا بالحصول على تأشيرتي». إلا أن ماسينيون لم يكن ليغفل عن تتبع المستجدات في الوسط الطلابي، وخاصة كل ما يتعلق بمالك بن نبي، وأخيرا «... كُللت كل مساعي الشيوخ لدى سفارتهم بالفشل المطلق»، وبالرغم من أن بن نبي قد جرب سبلا أخرى كاتصاله غير الرسمي بالمفوضية السعودية ومحاولته الهروب من فرنسا عبر ألبانيا، إلا أن جميع هذه المساعي قد آلت إلى الفشل .

لم يكن أمام بن نبي في ظل هذه الظروف سوى الاستسلام، والعودة للبحث عن عمل في شوارع باريس تلبية لاحتياجاتهما اليومية الضرورية، هو وزوجته. وقد أدرك واستخلص بعد محاولات كثيرة «أنه ما من شركة صناعية كبيرة في فرنسا إلا وتلقت تعليمات دقيقة بخصوص اليد العاملة الشمال أفريقية» وبالتحديد لما «يخص الأمر «مُثقفا» يهتم بالأفكار ويتسرب في صفوف العمال البسطاء». هكذا كان التضييق

---

* اتباع الوسائل الأكثر نعومة، وذلك، في رأينا، تجنبا للسخط العام حتى لا يصبح مالك بن نبي قضية تؤثر على صورة فرنسا دوليا، خصوصا وأن مالك كانت له صداقات فرنسية في نادي اتحاد الشبان المسيحيين .

** حرمانه من شهادة الميكانيكا والكهرباء (التي استحقها عن جدارة) .

*** انظر : بن نبي، مالك : الظاهرة القرآنية، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، ط4، 1987م، (تقديم عبد الله دراز) ص من 9 إلى 15 .

على مالك بن نبي وأصدقائه، من المجموعة المذكورة. أما بالنسبة لحمودة بن ساعي ضحية «مختبرات السموم السيكولوجية»، فقد فعلت فيه هذه المتابعات فعلها، حيث بلغ «الانحدار الذي يوصل إلى للهوة السحيقة» وبهذا يكون ماسينيون قد نجح في إلغاء نشاط أحد أهم مصادر الخطر الفعلي بالنسبة للإدارة الاستعمارية. أما بن نبي فيذكر أنه قد نجا من هذا الانحدار المُمَنهج، إلا أنه كان يجد ماسينيون في على الدوام معترضا طريقه مهما كان المسلك الذي يتخذه*، وأخيرا كان مصير المجموعة (كمجموعة) التشتت والتلاشي .

بعد هذا، بدا لملك بن نبي ألا نجاة من مخططات الإدارة الاستعمارية ومن ملاحقات ماسينيون، وانتابه يأس وقد أثّر الوضع على زوجته وبلغ بها حدّ التشاؤم وهي المتفائلة بطبعها. حتى قال «أدركت مرة أخرى أن تأثير ماسينيون منتشر في كل مكان وأنه مداهم ومطلق»[1] .

1 - 3 - 2 - الفـوضـــى

عاد مالك بن نبي إلى تبسة في أواخر جويلية عام 1937م وهنا يصف لنا الأوضاع الجزائرية الغائبة عن الوعي في فهم المجريات محليا وعالميا، مما دفعه ليأخذ انطباع (الفوضى) عن هذه الأوضاع، حتى الإصلاح الذي كان بن نبي ينحاز إليه ويرى فيه أملا للمستقبل، برغم بعض مثالبه «فر هاربا ومعه بذرة المستقبل التي كان يحملها». في خضم هذا كانت ردة فعل بن نبي محاولةُ لفت الأنظار إلى المشكلات الواقعية التي تهدد مستقبل البلاد، إلا أنه لم يجد آذانا صاغية، والسبب «كان الآخرون يحدثونهم عن «الحقوق» ويكلمونهم عن «الانتخابات» وكنت أكلمهم عن العمل فحتما لم يسمعني أحد»[2]. ويضيف في السياق ذاته «لم أقل للناس انتخبوني ونوموا في سلام. على العكس، كنت أقول لهم لا تنتخبوا أحدا، أفيقوا وانهضوا من سباتكم». ثم يستطرد في ذكر تفاصيل الأوضاع الداخلية وعبث الأحزاب الجزائرية، التي تُجسّد السياسة العقيمة والتي تضع الخطة الانتخابية "كأولوية لها"، لدرجة أنه قال «لم يبق شيء صاف في الجزائر»[3] وأخيرا يقرر المغادرة إلى مرسيليا .

على أن الحياة بمرسيليا لم تكن أقل تعفّنا من الحياة هنا بالجزائر والمجتمع المسلم عموما «فحياة المسلمين بمرسيليا هي مشهد معبر لكل من أراد أن يتعلم نقاط

* راجع مثلا [العفن / 137، 138، 139] .
[1] المصدر ذاته، ص 146 .
[2] المصدر ذاته، ص 152 .
[3] المصدر ذاته، ص 155 .

الضعف الداخلية والخارجية للمجتمع المسلم». ولمالك بن نبي تجربة (تربوية - تعليمية) في شارع شابوليبه بمارسيليا تستحق أن تدرس دراسة مستقلة، حيث أسس (نادي التربية والتعليم) استجابة لتحدي الواقع المارسيلي. فالمسلمون كانوا هناك كما لاحظ بن نبي «يعيشون أو قل يخملون بمرسيليا في غفلة تامة وغياب وعي كامل بأنفسهم وبكل ما يحيط بهم». فكانت استجابة مالك بن نبي فعلية فورية كما كانت دائما في مختلف التحديات التي طرأت له .

وقد فهم مالك بن نبي أن السماح باستمرار وضع المسلمين في مرسيليا على هذا النحو ليس مصادفة في منطق الإدارة الاستعمارية. إذ أن هذا الواقع يخدم تماما الخطة الاستعمارية من أجل تمديد مساحة أكبر من حالة غياب الوعي، بطريقة غير مباشرة، بالمقابل، كما أشرنا، قام بن نبي على الفور بتأسيس (نادي التربية والتعليم) ووضع له برنامجا تربوي - تعليمي يدل على عبقرية هذا الفيلسوف، فكان البرنامج على بساطته، وقلة موارده، ذا نتائج سريعة وراسخة الأثر كما أبانتها المذكرات قيد الدراسة .

لم يسلم بن نبي من متابعات الإدارة الاستعمارية خلال وجوده في مرسيليا، ولم يكن ماسينيون ليغفل عن تحركاته هنا أيضا، وقد أدرك ماسينيون خطر هذه المؤسسة (نادي التربية والتعليم) وأثره البعيد لو استمر. «أدركت أن ماسينيون يتابع خطواتي وأنا بمرسيليا». وبالفعل تم أخيرا توقيف النادي، المؤسسة التي رأت فيها الإدارة الاستعمارية خطرا جادا يهدد مصالحها. استنفذ بن نبي، عندئذ، كل إمكانية* للمواصلة والمقاومة، إلا أن تأليب أهل الحيّ عليه وعلى وتلاميذه كان أقوى من أن يُقاوم، ويتحدث بن نبي عن هذا التأليب بنبرة اشمئزاز «ومن هنا كان من السهل تأليب ضدنا جميع المصالح القذرة لأصحاب المطاعم الوسخة ومقاهي العرب الذين كان من السهل تصوير نشاطنا ـ نشاطي أنا وتلاميذي ـ بأنه يضر بمصالحهم» .

بعد هذه التجربة في شارع شابوليبه، بانتصاراتها وانتكاساتها، عاد بن نبي إلى تبسة من جديد وقد «كان الجو للهرج والمرج أكثر من أي وقت مضى»، وهنا واصل محاولاته لخلق وعي بكل الوسائل الممكنة بخصوص الحرب العالمية الثانية التي توشك على الاندلاع. إلا أن جهوده لم تبلغ المراد لأسباب تتصل بـ(الذهنية العلمائية) و(العقلية الأهلية) و(سياسة البوليتيك) .

* راجع [العفن / 165] .

1 - 3 - 3 - الحــــرب

تسارعت الأحداث وفي الفاتح من سبتمبر عام 1939م تم الإعلان رسميا عن الحرب، مما فاقم حالة بن نبي المزرية وزادها صعوبة. في ظل هذه الظروف غادر* مالك الجزائر في منتصف سبتمبر 1939م. بعد أن قام بحل العديد من المشاكل الإدارية والمالية التي فرضها عليه السفر. وقد قال قولته المؤثرة، وهو على متن الباخرة يلقي آخر نظراته على أرض ميلاده :

« يا أرضا عقوقا ! تخصين الرجل وتهينينه. يا أرضا قاسية ! تقتلين أبناءك وتتركينهم للجوع وتطعمين الأجنبي ! أتمنى ألا أراك ولن أعود إليك حتى تصبحي حرة ! » .

* وهناك استمر بحثه عن العمل، وكان الفشل والخيبة نهاية كل محاولة يقوم بها .

﴿ 2 ﴾

(الــروح البنابيـــــة)

2 ـ 1 ـ النقـد البنابـي للعلمائيـة

2 ـ 1 ـ 1 ـ النقد النظري للعلمائية

2 ـ 1 ـ 1 ـ 1 ـ النقد النظري الوظيفي (حالة غياب الوعي)

2 ـ 1 ـ 1 ـ 1 ـ 1 ـ ابن باديس

2 ـ 1 ـ 1 ـ 1 ـ 2 ـ العربي التبسي

2 ـ 1 ـ 1 ـ 2 ـ النقد النظري المجرّد (المكونات المعرفية لحركة الإصلاح)

2 ـ 1 ـ 2 ـ النقد العملي للعلمائية

2 ـ 1 ـ 2 ـ 1 ـ مشكلة الروح العلمية

2 ـ 1 ـ 2 ـ 1 ـ 1 ـ الوثوقية

2 ـ 1 ـ 2 ـ 1 ـ 2 ـ مركزية المشرق

2 ـ 1 ـ 2 ـ 1 ـ 3 ـ تضخّم الذات

2 ـ 1 ـ 2 ـ 2 ـ مشكلة المصداقية

2 ـ 2 ـ البنابيـة (كمقـابل للعلمائيـــة)

2 ـ 2 ـ 1 ـ بنية الفكر البنابي

2 ـ 2 ـ 1 ـ 1 ـ القراءات الأولى

2 ـ 2 ـ 1 ـ 2 ـ أثر حمود بن ساعي في مالك بن نبي

2 ـ 2 ـ 2 ـ العملية في الفكر البنابي

2 ـ 2 ـ 2 ـ 1 ـ فكرة الواجب والمبدأ العملي

2 ـ 2 ـ 2 ـ 2 ـ أمثلة عملية

2 - 1 - النقــــد البنــــابــي للعلمائيـــــة

لم يكن «العلماء» سوى مجموعة مسكينة من الخانعين الفاترين، من غير اقتدار يسمو بهم لمستوى الوضع ..

ـ مالك بن نبي ـ

سنتناول في هذا المبحث موقف مالك بن نبي من «العلماء» الجزائريين. وهو مبحث يشتمل على عرض لطريقة تفكير العلماء وسلوكهم ضمن السياقات الاجتماعية والأحداث التاريخية وموقف مالك بن نبي من كل هذا كما ألفيناه في المذكرات التي بين أيدينا. إن الموقف العميق لمالك بن نبي من علماء الدين الجزائريين المعاصرين له لن يظهر تاما للدارس من خلال كتبه الأخرى بمعزل عن مذكرات العفن أو العكس، غير أن هذه المذكرات تعتبر المحور الأساس في بحث هذا الموضوع بالذات، وكذا الكشف عن خصائص بنية التفكير العلمائي وسلوكه في تفاعله من الصراع الفكري في البلاد المستعمرة .

ولعل غياب (مذكرات العفن) وتأخر ظهورها، ساهم في انتشار معلومة شائعة ليس لها ما يثبتها، كالتي سجّلها جورج طرابيشي في معجمه الفلسفي، وهي : أن مالك بن نبي «من تلامذة ابن باديس»[1]، ولم نعثر خلال بحثنا في مصادر السيرة البنابية ما يؤيد ويثبت أن بن نبي هو فعلا من تلامذة الشيخ ابن باديس، ويمكن العودة إلى سيرته* والتحقق من ذلك. فتناول مؤلفات بن نبي من دون مذكراته Pourritures هو نقص في التناول يُؤدي إلى لبس في فهم فكر هذا الفيلسوف عموما وموقفه الذي ندرسه هنا خصوصا**، ومثال المرحوم جورج طرابيشي، يوضح هذا. على أية حال فإن موقف بن نبي واضح من العلماء، ولا يمكن البتة أن يُصنّف بن نبي كخريج من مدرسة الإصلاح الدينية (بخصائصها السلبية، أي كما كانت بالفعل)*** أو تلميذا لابن باديس، وإن كان متعاطفا مع الإصلاح ومع الشيخ ابن باديس، إلا أنه قد انتقد وبشدّة (تناسبا مع الوضع) طريقة العلماء الإصلاحية، عموما، التي أطلق عليها بأسلوب هو أقرب إلى التهكّم بـ(إصلاح النحويين) .

---

[1] طرابيشي، جورج : معجم الفلاسفة، ص 35 .

* (مذكرات شاهد قرن) وخاصة (العفن) .

** أي موقفه من العلماء الجزائريين .

*** والقارئ لمذكرات العفن، سيفهم هذا جيدا، ويفهم أيضا لم اختار صاحبها تسميتها بـ : العفن .

إن موقف بن نبي من العلماء هو موقف نقدي مباشر غير قابل لأن يُحمل على غير ظاهره (في المذكرات قيد الدراسة)، وقد اتخذ مالك هذا الموقف نظرا لعدة أسباب، أهمّها : 1 ـ انضواء العلماء تحت لواء بن جلول (أحد أبرز الخونة ـ الأبطال). 2 ـ موقفهم الإدماجي في مؤتمر 1936م*. 3 ـ خصائص البنية المعرفية بالنظر إلى ما يقتضيه الإصلاح. 4 ـ خصائص النشاط الاجتماعي في إطار الصراع الفكري. وهذه الخصائص الأخيرة (3 / 4) بوجهيها (النظرية والعملية) اخترنا لها كلمة (العلمائية) للتعبير عنها. فالعلمائية هنا نقصد بها : مجموع الخصائص النظرية والعملية لعلماء الدين الجزائريين في من وجهة نظر وظيفية اجتماعية صراعية استعمارية في إطار مرحلة تاريخية محددة ** .

انطلاقا من تعريفنا لـ"العلمائية" نفهم أن نقد بن نبي للعلماء لم يكن المقصود به انتقاصا لقيمتهم العلمية في الفقهيات أو الكلاميات، وإنما هو نقد أفرزه بعد نظر فيلسوف الحضارة، لما رأى قصور ووعيهم*** بخصوص منطق الصراع الفكري الاستعماري، ونشاطهم غير المتكافئ مع ما يقتضيه السياق الاجتماعي، أي، بتعبيرنا الخاص: "أثر علمائيتهم في المجتمع المستعمر [بفتح الميم] وما قد ينجم عنها مستقبلا"، وهذا الأثر لم يكن موجبا بل كان سالبا لا يتماشى والمصلحة العامة للبلد المستعمر [بفتح الميم]. وإن سلطة، أيا يكن نوعها، لها تأثير مشهود في توجيه شعب بأكمله وصناعة رأيه العام لجدير بأن يُتوقّف عندها وأن تخضع للرقابة الصارمة والنقد، ومن باب أولى إذا كانت تسير في الاتجاه الخاطئ. ومن هنا ينبغي أن نفهم موقف مالك بن نبي من العلماء، دون اللجوء إلى أي مزايدات أو مناقصات .

---

* انظر قول الشيخ عبد الحميد ابن باديس كما ينقله فرحات عباس «إنني راض عن الإصلاحات التي وعدت بها حكومة "بلوم ـ فيوليت"، في انتظار إجراء التصويت العام بالنسبة للجميع، الذي سيسمح بإدماج التجمع السكاني المسلم، بلا قيد أو شرط، في العائلة الفرنسية الكبرى»، [عبّاس، فرحات : تشريح الحرب، تر : أحمد منور، الناشر : منشورات الجزائر للكتب، الجزائر، دط، 2015م، ص 26]. وللتوسع أكثر في مفهوم الإدماج، راجع [رابح، تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس (رائد الإصلاح والتربية في الجزائر)، الناشر : المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4، 1984م، ص 62 ـ 65] .

** لنقل إن هذه الفترة التاريخية المحددة هي الفترة ما بين (1932م ـ 1940م) وهي المدة الزمنية التي يغطيها الجزء الأول من المذكرات قيد الدراسة. مع أن هذا الموضوع (نقد العقل الديني) يُطرق كثيرا اليوم في الساحة الفكرية، فهي قضية تاريخية ذات جدل مع العصر، وجدليتها التاريخية هذه مع العصر هي من بين الأسباب التي جعلتنا نختار هذا الموضوع بالذات ونخصص له مبحثا مستقلا هاهنا .

*** لسنا نبالغ بقولنا هذا، وفي الإمكان التحقّق من خلال المذكرات قيد الدراسة. وعن خطر التصدي لمشكلات الأمة قبل الأوان، وعدم مراعاة حجم المسئولية يراجع كلام الإمام علي عليه السلام، [الرضي، الشريف : نهج البلاغة (وهو ما جمعه الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين. علي بن أبي طالب عليه السلام، تح : الشيخ محمد عبده، الناشر : دار الفجر للتراث، القاهرة، ط2، 2013م، ص من 85 إلى 88]، أما عن ضرر العلوم، كما أشار بن نبي إلى الأثر السلبي للعلوم الدينية اللغوية إذا استعملت في غير محلّها، إذ لا تعود ذات جدوى بل ذات ضرر إذا أسيئ استخدامها في سياق الصراع الفكري كما كان الحال بالنسبة للعلماء الجزائريين، وللإمام الغزّالي في كتابه الإحياء كلام يشبه هذا، راجع [الغزّالي، أبي حامد محمد بن محمد : إحياء علوم الدين، الناشر : الدار التوفيقية للتراث، القاهرة، دط، دت، ج1، ص من 43 إلى 46] .

2 - 1 - 1 - النقــد النظــري للعلمائيــــة

تحت هذا العنوان سنتناول نقد مالك بن نبي لأحد وجهيّ العلمائية، وهو الوجه النظري، أي نقد الخصائص التفكير عند العلماء. ويتفرّع لنا من النقد النظري قسمان من النقد؛ أحدهما وظيفي (سياقي) والآخر مجرّد (بنيوي) .

2 - 1 - 1 - 1 - النقــد النظــري الوظيفـــي (حـــالة غيـــاب الوعي)

إن تخصيص هذا الجزء من النقد النظري بصفة «الوظيفية» قصدنا من خلاله أخذ هذه الخصائص النظرية في تفاعلها مع الملابسات المحيطة (أحداث الصراع الفكري). وبعبارة أخرى، نتناول هنا الخصائص الفكرية للعلماء مع الأخذ في الاعتبار أثرها الوظيفي (السياقي). وكذا سنرفقها بالمآخذ التي سجّلها مالك بن نبي بهذا الشأن تحديدا. وهذه الخصائص النظرية للعلماء في تفاعلها مع الواقع أفرزت عيب من عيوب العلمائية نطلق عليه «حالة الوعي العلمائي (المغيّب) بما يخصّ الصراع الفكري» .

خلال اطلاعنا على مذكرات (العفن) وقفنا على عدة انتقادات لمالك بن نبي تخص (حالة غياب الوعي) التي ميّزت العلماء الجزائريين في تلك الفترة، ونقصد بغياب الوعي هنا هو عدم التنبه والتفطن إلى المخططات الاستعمارية وغياب الفهم للأحداث العالمية ذات الآثار الجدلية في البلاد المستعمَرة [بفتح الميم]. سنختار شخصيتين من العلماء كنماذج لهذه الحالة. والتي تؤكّد تورّط ما أطلق عليه بن نبي بـ«الثقافة الإسلامية» الأزهرية والزيتونية* في المساهمة ببث وترسيخ هذه الحالة (غياب الوعي) في الأذهان، هذه الحالة ظهرت كجامع مشترك بين العلماء .

2 - 1 - 1 - 1 - 1 - بن باديـــــس :

تظهر لنا حالة غياب الوعي بالمخططات الاستعمارية الدقيقة في تفكير الشيخ بن باديس في عدد من المواضع داخل المذكرات، ونبدأ بموقف يُسجل فيه بن نبي انتقاده لابن باديس والعلماء عموما. يتمثّل الموقف في تعليق للشيخ ابن باديس على أحداث خارجية تتصل بالدولة السعودية أيام ابن سعود، في مجلة الشهاب، والذي لما قرأه مالك بن نبي أصيب بـ «خيبة مريرة» و«تحسّر» على السلفية الجزائرية. ولنفهم هذا، سنقوم بعرض مقتضب لتلك الأحداث، حتى نفهم، ولو مبدئيا، دوافع نقد بن نبي .

---

* لذلك لما يسجل بن نبي إعجابه بحسن البنا، يقول «وليس من قبيل الصدفة أن رجلا كحسن البنا ليس في تكوينه شيء يدين به للأزهر أو للزيتونة» [العفن / 156] . شاهد أيضا [مالك بن نبي المجهول في قومه / وثائقي الجزيرة].

نشرت الصحف في باريس هذا الخبر «أحداث خطيرة يتم الإعداد لها على حدود الحجاز» ولأن مالك بن نبي كان متابعا للأحداث العالمية وصاحب نظرة شمولية* تجمع المتفرقات ضمن سياق عام لتعطي تفسير أقرب إلى الواقعية، سيصنف الأحداث، ضمن منطق الصراع بين المستعِمر [بكسر الميم] (محور / واشنطن ـ موسكو) والمستعمَر [بفتح الميم] (محور / طنجة ـ جاكرتا). فبعد أن استنفذوا الأسلحة الداخلية ضد ابن سعود (انتفاضات داخلية)، كانت الفاشية الموسولينية تسعى وقتها لبعث الإمبراطورية الرومانية، هكذا ربط بن نبي الأحداث، وقد أثّر هذا على نفسيته كثيرا**، «كنت أتبين إيطاليا بصورة جلية وراء إمام اليمن، ومن بعدها إنجلترا وفرنسا، ثم اليهود من وراء الجميع»، وفي الغد أو بعد غد نشرت الصحف هذا خبر «الجيش السعودي بقيادة الأمير فيصل قد أحبط بمناورات سريعة كل خطة الحرب التي أعدّها الإمام يحي إذ تم الاستيلاء على ميناء الحديدة في ظرف أربع وساعة....»، أوردت الصحف الأحداث وتحدّثت عنها كما لو أنها كارثة مجملة بمشاريع وأفكار ونتائج. يعلّق بن نبي «لقد خسر موسوليني بوضوح، أما الآخرون فاندحروا كذلك إلا أنهم لم يفصحوا عن خيبتهم التي أبانتها عناوين الصحف «قبائل متزمّتة متوحّشة تسمّى الوهابية» ...»***.

كان تعليق الشيخ بن باديس في مجلة «الشهاب»، على هذه «المأساة» كما أطلق عليها بن نبي، هو تأسف على «إراقة دماء الإخوة المسلمين»، «هذا ما استخلصه الشيخ الموقر من هذه المأساة...» عقّب بن نبي بخيبة وحسرة. فمن خلال المقارنة بين الفهم البنابي والفهم العلمائي للأحداث وتفسيرها، يظهر لنا البون الشاسع بين العقليتين، وندرك لم كان لبن نبي كل هذه المآخذ على العلماء، باعتبارهم فاعلين في تشكيل الرأي العام. يقول بن نبي إثر مطالعته لتعليق الشيخ، بعد الأحداث بوقت، «أصبت بالخيبة

* انظر تمهيد هذه الدراسة .

** لا ننسى أن بن نبي كان سلفيا وهابيا، يقول بن نبي : «عشت أياما في تأثر بالغ. فكنت أدعو الله في صلواتي، والدموع في عيني، أن يُحبط الحسابات الخفية التي كانت تريد استعمال الإمام يحي لتحطيم ابن سعود» راجع [العفن / 83] وكان يرى في الحركة الوهابية التي ترعاها الدولة السعودية إصلاحا دينيا في الإسلام على غرار الإصلاح البروتستانتي في الديانة المسيحية [مذكرات شاهد قرن / 277]، ولا يبدو أن الجميع يتفق مع مالك بن نبي بخصوص الدولة السعودية والحركة الوهابية. وهناك كاتب سعودي يرى العكس تماما، إذ عثرنا على كتاب من خمسمائة صفحة بعنوان (مملكة الفضائح) يروي لنا ظروف نشأت الدولة السعودية، وأسرارها الداخلية وعلاقاتها الخارجية بأمريكا وبريطانيا، بل والصهاينة، وأحوال الملوك والأمراء والوزراء والشيوخ، واضطهادهم للشعب بأساليب وحشية. هذا ويحوي الكتاب مجموعة من الأدلة المتنوّعة الموثقة، وباختصار كما جاء في مقدمة الكتاب «إن الفضائح هي التاريخ الحقيقي لآل سعود» [مملكة الفضائح، ج1 / 19]. راجع [الشمراني، عبد الرحمن ناصر : مملكة الفضائح (أسرار القصور الملكية السعودية)، الناشر : دار الإنسان، بيروت ـ لبنان. ط1 / 1988م، ج1]. ويذهب الكاتب بعيدا ليرى أن المهمة الأساسية لحكومة آل سعود هي تشويه الإسلام والعروبة «مقابل بقائهم على العرش، ولقد رأيت أن واجبي، يدعوني إلى فضح مؤامرة آل سعود، ورد الكيد الصهيوني الصليبي الأهوج، والكشف عن أخطر مؤامرة تسري نتائجها اليوم في جسد الأمة، ودعوة الغيارى والمخلصين إلى الضرب بيد من حديد على رؤوس الفساد في بلاد العرب...» [مملكة الفضائح، ج1 / 15] .

*** يمكن مراجعة التفاصيل أكثر بالعودة إلى المذكرات قيد الدراسة، لأن ما أوردناه هنا، فقط انتقاء يخدم غرض المقارنة بين الفهم العلمائي الباديسي والفهم البنابي إزاء الوعي بالصراع العالمي بين المحورين (موسكو ـ واشنطن / طنجة ـ جاكرتا) .

المريرة»، ويضيف في السياق ذاته «تحسّرت على السلفية الجزائرية ونظرتها الضيقة والجبانة» .

ومن أسباب هذه المواقف النقدية، زيادة على حالة غياب الوعي، هو انضواء العلماء تحت راية بن جلول بالرغم من إفصاح بن نبي المتكرر حول شكوكه القوية بخصوص الدكتور بن جلول* ونهجه الذي يخدم مصالح الإدارة الاستعمارية سواء عن قصد أو عن غير قصد، كما أكّد ذلك بن نبي في عدد من المواضع في المذكرات قيد الدراسة. وقد كان إتباع العلماء لبن جلول عن غفلة وحسن نية، إلا أن المشكلات لا تحلّ بحسن النية في ظل غياب الوعي «حتّى الشيخ ابن باديس الذي يظهر أثناء الأحداث العصيبة وهو متحل بشجاعة سامية، وبكرامة تامة، كان أبعد من أن يعي مغزى الأحداث. وأخيرا، ورغم أنفي، فإن بن جلول رُفع إلى درجة «الحكيم» والبطل الوطني رقم واحد» .

فحسن النية والفضائل الشخصية، كما كانت حال العلماء الجزائريين بلا شك، ليست كل شيء في سياق صراع فكري الذي يقتضي فهما أعمق وأوسع للأحداث التي تقرر مصير شعب بأكمله أو أمة بأكملها. وهنا نذكر قولة رئيس معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية بباريس باسكال بونيفاس عن سياسة العواطف والتي ميّزت ذلك الجو في تلك الفترة «علينا ألا نستخدم فيض الانفعالات فربما تكون طريق جهنم مفروشة بالنوايا الحسنة. سياسة العواطف الجيدة ليست بالضرورة سياسة جيدة» [1] .

حادثة أخرى، تحكي لنا حالة غياب الوعي بالمخططات الاستعمارية عند العلماء الجزائريين، تتمثل في نزول وفد المؤتمر الذي زار باريس ـ وممن ضمَ الوفدُ عدد من العلماء يُعتبرون رموزا بارزة في حركة الإصلاح الجزائري (الشيخ بن باديس، الشيخ الإبراهيمي، الشيخ العقبي.. وشخصيات أخرى) ـ بالفندق الكبير الذي تنزل فيه الفاتنات والغانيات، هذا بغض النظر عن التفاصيل الصادمة**، «كان المشهد بائسا يثير الشفقة : فقد صاحبت الفاحشة والمشروبات الكحولية وفدا ضم الأعضاء البارزين للإصلاح الجزائري». لم يعي أي من العلماء خبايا الإدارة الاستعمارية من وراء اختيارها لهذا الفندق بالذات، فقد كانوا أعجز من يدركوا «مرامي وخفايا بروتوكول

* القائل «لولا فرنسا لكنت مجرّد شماس»، على غرار فرحات عبّاس صاحب مقال (أنا فرنسا) الذي نفى فيه، أي وجود لأمة جزائرية، وكان ردّ مالك بن نبي عليه في مقال (مثقّفون أم متثيقفون) . راجع [العفن / 115، 126]

[1] بونيفاس، باسكال : المثقفون المزيّفون (النصر الإعلامي لخبراء الكذب)، تر : روز يوسف، الناشر : ورد للطباعة والنشر، سورية ـ دمشق، ط1، 2013م، ص 29 .

** كَتَبَ بن نبي «... استطعنا أن نشاهد جماعة العلماء التي كانت تهمّنا دون سواها في الفندق. وقد أحسست بأن ملاحظاتي كانت تحرج ابن باديس كثيرا دون أن ينبس بكلمة. فكان هو الذي دفع ثمن محادثاتنا إذ اختفى العقبي دون أن أدري أين؟ بينما جلس الإبراهيمي بحذر منزويا عن جماعتنا. ثم ظهر لنا بن جلول، وبعد تحية عابرة ذهب ليجلس بعيدا ليرتشف مشروبا كحوليا بصحبة مندوبة جميلة، تم انتدابها على الأرجح خصيصا لدى رئيس «الوفد الأهلي» » . [العفن / 117] .

يفرض أن مكانا تنزل فيه فاتنات وغانيات ومن رواده أصحاب الملايين، لا يصلح أن يكون مكانا لـ «عالم»، أو قسيس أو حتى رجل سياسة جدي» .

بقي بن باديس في العاصمة الفرنسية بضعة أسابيع بعد أن غيّر الفندق، (مما يدل على أن انتقادات مالك بن نبي قد أتت أكلها كما قال). في هذه الأثناء كان يُعرض فيلم L'appel du silence (نداء الصمت) الذي أثار حماس الجماهير الباريسية وهو يحي ذكرى الأب دو فوكو*. اقترح بن ساعي على صديقه بن نبي أن يدعو الشيخ ابن باديس لمشاهدة الفيلم الكبير وقد قدّر أن الدرس ضروري للشيخ، يقول بن نبي «وكانت نية صديقي هي إعطاء الزعيم الإسلامي درسا ولكن بطريقة خفية، حول مفهوم المهمة والرسالة»**، بيد أن ابن باديس كان مدعوّا في ذلك المساء وفي الوقت المخصص لعرض الفيلم من طرف صاحب مقهى الهقار الذي اقترح عليه فيلما آخر موضوعه تسلية خالصة، وكان الفرق بين بن ساعي وبين صاحب الهقار، أن هذا الأخير يمتلك سيارة، أخيرا يُعلّق بن نبي بسخرية مريرة «وفازت السيارة بالشيخ ابن باديس». وهذا مما يُحسب ضمن حالة غياب الوعي بخصوص الصراع الفكري والاستعماري، فأذهان العلماء المسلمين الجزائريين لم تكن مؤهلة لفهم أشكال الصراع القائم بين المحورين وأشكاله في أدقّ مستوياتها والتي تجلّت لبن نبي بفضل الخصائص الفكرية التي كان يتمتع بها. ومهما يكن فقد كتب مالك بن نبي «كبّرت أربعا على «العلماء» وأقمت عليهم

---

* الأب دوفوكو Père de Foucauld، الضابط الكبير والمنصّر المخبر أو المخبر المنصّر [العفن / V] صاحب وصية التصرف في شؤون المسلمين، من أسس هذه الوصية : تحقيق التحول الاجتماعي والثقافي للشعب الجزائري المسلم بفعل الفضيلة المضاعفة للاستعمار : الحضارة الفرنسية والخلق المسيحي [العفن / 26، نقلا عن : شارل دي فوكو في نظر الإسلام، لعلي مراد، ترجمة : علي مقلد، ص 81] . كتب الأب دوفوكو في رسالة خاصة بعث بها لصديقه الدوق (فيتس جيمس) سنة 1912م، منشورة في جريدة لوموند بتاريخ1956/05/17 «إنني أعتقد بأنه إذا لم نستطع تحويل المسلمين بالتدريج عن دينهم وحلمهم على اعتناق المسيحية، فإن النتيجة الحتمية هي تكوّن روح قومية جديدة تؤدي إلى طردنا من الإمبراطورية الاستعمارية في شمال أفريقيا. إن الروح الوطنية، العربية والبربرية، سوف تنمو في صفوف الطبقة المثقفة التي ستستعمل الإسلام كسلاح فعّال لإثارة الجماهير الجاهلة، في إمبراطوريتنا... ! إن السبيل الوحيد لضمان عدم طردنا من هذه الإمبراطورية، هو أن نجعل سكان البلاد فرنسيين، والسبيل الوحيد إلى ذلك هو جعلهم مسيحيين» [العفن / VI]، لقي الأب دوفوكو حتفه على يد أبناء الجزائر في جنوبها الثائر سنة 1916م، بعد أن قضى العشرات من السنين يزاول نشاطاته التنصيرية. وماسينيون هو تلميذ للأب دي فوكو [العفن / V] ومنفّذ وصيته [العفن / 26]، وكل الذين تتلمذوا على يد دي فوكو عن طريق بماسينيون، كانت لهم نفس الغايات، فمنديس فرانس رئيس وزراء فرنسا وتلميذ ماسنيون يقول «إننا نعتقد أن سياستنا هي الوحيدة التي تستطيع إدامة الوجود الفرنسي في الجزائر، وإذا ما قدّر لنا سوء الطالع أن نفقد الجزائر، فإننا سنفقد معها جميع أجزاء الإمبراطورية» [العفن / VI]، وكذا باتيستيني الذي كان يريد دفن القرآن، وقد تكوّن في مدرسة ماسينيون وكان يتلقىّ دروسه فعليا بباريس سنة 1931م . [العفن / 39]، قال في أحد الأيام من سنة 1936م، «نريد دفن القرآن، ولن نسمح للآخرين بإحيائه» [العفن / 151] .

** «فكان ما يحيرني أنا وأصدقائي هو بالضبط الفتور الكبير لزعماء الإصلاح الجزائري الذين كانوا ينتظرون قدوم العامة إليهم حتى كراسيهم، عوض نقل الكلمة الطيبة حتى في أكثر أماكن لهو هذه العامة مجونا وفسادا» هذه ملاحظة هامة يسجلها بن نبي، حول طريقة الدعوة والتذكير عند العلماء، حيث يفترض العلماء أن العامة من ستأتي إلي كراسيهم لتتعلم منهم، بينما الواجب هو تواضع العالم (الداعية الديني) للناس وإتيانه إليهم وتحمّله الأذى في سبيل ذلك، كما هي طريقة الأنبياء .

الحداد منذ سنة 1936 هذه، واعتبرتهم أعجز من فهم فكرة ناهيك عن تصوّرها وتنفيذها»[1] .

2 - 1 - 1 - 1 - 2 - العربـــي التبســـي

الشيخ العربي التبسي هو الآخر، من أبرز من تجسّدت فيهم حالة غياب الوعي التي نحاول إبرازها هنا، ونراه النموذج الغالب المتكرر لحالة غياب الوعي ابتداء الصفحة 87 حتى الصفحات الأخيرة من مذكرات (العفن)، والتي سجّلت مواقف عديدة انجرّت عنها انتقادات فكرية وسلوكية، ونفهم بعد قراءتها قول بن نبي «وهكذا بدأت عوارض البغضاء تتجلى بيننا وزادها استفحالا سوء نية الشيخ والعجب وغياب النزاهة لديه»*. وأصل الاختلاف بين مالك بن نبي والعربي التبسي هو موقفهما المختلف المتناقض من بن جلول، فبينما كان بن نبي يرى في هذا الأخير خائنا على هيئة بطل وطني، كان الشيخ العربي يرى فيه الرجل الأوحد القادر على تحقيق المطالب، ولم يدرك أنه بموقفه هذا، غير الواعي إنما «يخدم بالضبط أهداف الإدارة الاستعمارية التي تتوفّر من جانبها على خبراء يعرفون تقييم الرجل من نظرة واحدة»** .

حركة بن جلول*** في قسنطينة، التي لم يخف على مالك بن نبي، كما عبّر في مذكراته، «روحها المجافية للإسلام» وهمّها الانتخابي المحض، ونشاطها لصالح الإدارة الاستعمارية بطريقة أو بأخرى، قال بن نبي عنها بأنها «مجرد تلهية تصدّ عن حركة الإصلاح»، هكذا فهم بن نبي الأمر، وقد تبيّنه جيدا، وكتب «ان إنشاء فدرالية المنتخبين إنما هو بمثابة دفن للسلفية، فالأولى كانت تجذب الضمير الشعبي نحو «الفرنسة» والثانية نحو «الأسلمة»..» وقد لقى بن نبي بسبب تصريحاته هذه ردّ فعل مضاد من كثيرين، خاصة من الشيخ العربي، الذي افتقر إلى حدس بشأن خطورة الحركة البنجلونية على مستقبل الإصلاح وبالتالي مستقبل الجزائر المسلمة. «لم يُدرك الشيخ العربي التبسي أيا من هذه المعاني ولم يكن لديه حدس بهذه الأحداث ولم يفهم تحليلي وإثباتاتي». فكان بن نبي يُتهم في فهمه أو نيته كلما عبّر عن شكوكه، إذ أن العلماء وفي مقدمتهم العربي التبسي كانوا يرون في بن جلول «الرجل الأوحد»، بل قد عبّر الشيخ

[1] العفن، ص 118 .

* «والشيخ العربي هو الذي يمنحني إحساسا حادا بهذه العفونة التي تتحمس لها كل الحياة السياسية الجزائرية» راجع [العفن / 155]، نذكّر هنا أن بن نبي كتب نصّه هذا وهو لا يزال تحت أثر تلك الآلام التي تجرعها في سنواته بباريس والجزائر، لذلك نرى هذه اللهجة الحادة، غير أنه يذكر الشيخ التبسي باحترام بالغ ويحزن لمصيره انظر [الصراع الفكري في البلاد المستعمرة / 11]، ونفس الكلام يقال عن الشيخ ابن باديس والإبراهيمي وغيرهم، فكلام بن نبي لم يتعلّق بأشخاص العلماء وإنما بآثارهم باعتبار مسئوليتهم .

** أو كما قال في نص آخر، بخصوص هوس الرجل الأوحد «أه ! كم ستبتهج الإدارة الاستعمارية وتزدهي، وعلى رأسها ماسينيون، بوجود هؤلاء المتحمسين لإقناع الشعب الجزائري بأنه عقيم وبأنه لا يمكن أن يلد رجالا» .

*** راجع زيارة بن نبي لبن جلول، وموقف بن نبي بعد هذه الزيارة [العفن / 92، 93]، وشهادات هذا الأخير ومواقفه التي لا تختلف كثيرا مع تصريحات ومواقف فرحات عباس [العفن / 126]، [مذكرات شاهد قرن / 359 - 361، 366].

التبسي عن ذلك قائلا ((ابن نبي غير مدرك أن بن جلول ((فريد)) وإذا حطمناه، فلن يكون هناك من يقدّم مطالبنا)). رأى مالك بن نبي في هذا الهوس بـ((الرجل الأوحد)) صفة مشتركة بين العلماء الجزائريين أملته ثقافتهم الإسلامية الأزهرية والزيتونية*، ولم يدرك العلماء أنهم بهذا الهوس إنما يخدمون ((بالضبط أهداف الإدارة)) التي تُحسن تقدير الخطورة الفعلية للأمور، ولكن، استنتج بن نبي أخيرا ((فأفهم أن لعقلية الأهلية والقابلية للاستعمار هما دوما أفضل وسائل الإدارة الاستعمارية ضدي وضد أي أحد يسوقه حظه ليطلع على اللعبة بوضوح)) .

ولكن لو افترضنا أن بن جلول كان أقرب إلى النزاهة وأكثر وعيا، لكان ضرر هذا الهوس بـ((الرجل الأوحد)) في هذه الحالة أقلّ، غير أن العكس كان هو الحاصل بخصوص هذه الشخصية، وقد بيّن بن نبي ذلك في تضاعيف مذكراته، مما يجعلنا ندرك السبب الذي حداه لأن يسمّي هذا الجزء من المذكرات الذي ضمّ هذه الأحداث بـ(الفوضى). أخيرا يكتب بن نبي ((مهما يكن من أمر فقد تبيّنت، ويمكن تصوّر الألم الذي انتاب الضمير، أنه لم يبق شيء صاف في الجزائر، لا شيء يبارك الله تعالى فيه وينمّيه)) .

إن حالة (غياب الوعي) بالمخططات والأحداث التي تعبّر عن الصراع الفكري بين المحورين عند العلماء خصوصا، كانت دائما تُستغل لصالح الإدارة الاستعمارية، وبالمقابل كانت عقبة صعبة بالنسبة لكل مطّلع على الأمر على غرار بن نبي، ويمكن النظر إلى هذه الحالة على أنها مظهر من مظاهر القابلية للاستعمار .

2 ـ 1 ـ 2 ـ النقـد النظـري المجــرّد (المكونـات المعرفيـة لحركـة الإصـلاح)

بعد أن عرضنا نقد مالك بن نبي للجانب الفكري للعلمائية في تفاعله مع سياق الأحداث (نقد حالة غياب الوعي بملابسات الصراع الفكري)، ننتقل الآن إلى القسم الثاني من النقد النظري للعلمائية، الذي يسلط الضوء على الخصائص النظرية للعلماء بمعزل عن الملابسات، نتناولها في ذاتها أي في بنيتها المعرفية التي مثّلت عدّتها

---

* نجد هذا الهوس بـ ((الرجل الأوحد)) عند الشيخ الإبراهيمي لما يشير إلى نفسه بعد وفاة الشيخ بن باديس بألا أحد يمكن أن يعوّض مكانه ((وأشاع حوله بأن ليس هناك أي إنسان يمكن أن يخلفه إذا قدر وتوفي)) ! هذا ما دفع مالك بن نبي لأن يقول ((والهوس بـ((الرجل الأوحد)) فكرة مشتركة لدى ((العلماء)) الجزائريين. وقد يوحي الأمر بأن تكوينهم المشترك في الأزهر والزيتونة عاهة أصلية)). وقد تحدث مالك بن نبي في شروط النهضة عن (الشيء الوحيد) و (الرجل الوحيد) وعن عجز هذه (الأشياء الوحيدة) عن حل المشكلة ((التي هي مشكلة الحضارة أولا وقبل كل شيء)). [شروط النهضة / 158]. أشار المستعرب الياباني نوبوأكي نوتوهارا الذي قضى أربعين عاما من عمره متجولا في البلدان العربية ودارسا للثقافة العربية إلى مظاهر مشكلة (الأوحد) في العقل العربي خاصة السياسي [نوتوهارا، نوبوأكي : العرب (وجهة نظر يابانية)، الناشر : منشورات الجمل، ط1، 2003م، ص 39] . وكذا المستشرق الألماني هانز هينرش شيدر [شيدر، هانز هينرش : روح الحضارة العربية، تر : عبد الرحمن بدوي، الناشر : دار العلم للملايين بيروت، دط، 1949، ص 30] .

للإصلاح، وسوف نرى إن كانت هذه المكونات أو البنية المعرفية تتناسب وطبيعة المهمة المتوقّعة منها أو لا. وكذا محاولة فهم الأسباب التي حدت بابن نبي لأن يُعنى بهذه العلل في المكوّنات المعرفية وينبّه إلى (لافعاليتها) بل وإلى أضرارها أيضا .

ولدى استقرائنا لمآخذ مالك بن نبي المتعلّقة بهذا الجانب، أي المتعلّقة بالمكوّنات النظرية للعلمائية في ذاتها بمعزل عن سياق الصراع الفكري، عثرنا منها على مواضع أربعة* في المذكرات التي بين أيدينا .

في أول هذه المآخذ يتحدث مالك بن نبي بصفة عامة عن العقل الجزائري، من حيث نوع الخطاب الذي يستهويه، وسوف نرى أن هذا الوصف ينطبق على العلماء أيضا، حيث كان الأجدر بهم أن يكونوا استثناء، يقول مالك بن نبي في هذا النص المقتضب «...العقول المحبّة للبلاغة الأدبية كما كانت ولا تزال عقول كثير من الجزائريين». من أبرز خصائص هذا العقل من وجهة نظر مالك بن نبي، أنه منجذب إلى الخطاب البلاغي الأدبي الأقرب إلى العاطفة منه إلى العقل .

وقد كان لسفر بن نبي إلى فرنسا وقضائه بها عددا من السنين، أثرٌ في اختلافه الفكري عن «الوطنيين» و«العلماء» في الجزائر و«العقل المسلم عامة»، «ومنذ وجودي بباريس، أحسست بأني مختلف عن إخواني المسلمين»، فعلى المستوى الديني مثلا تميّز إيمان بن نبي بالعملية** «لم يكن إيماني تأمليا وحسب بل عمليا» وعلى مستوى التفكير أصبح عقله «ذلك العقل البراغماتي والعلمي الذي لا يمكن لواقعيته ودقّته إلا أن تُفاجئ عقولا تعوّدت عدم الدّقة وغياب الواقعية» من خلال هذا يضح لنا أن تواجده بباريس كان عاملا أساسا في تشكيل فكره وتحديد إيمانه. فعقله كان دقيقا واقعيا في مقابل عقل بياني منجذب إلى الخطابات البلاغية الأدبية، وإيمانه كان تأملا وعملا، ولم يكن انزواء عن الواقع*** أو ضربا من الدروشة الخرافية .

---

* انظر الصفحات [العفن / 43، 81، 108، 119 - 120] .

** صفة العملية أو بعبارة بنابية أكثر فنية «عبقرية الأرض» التي ذكرها بن نبي بخصوص العقل الأوربي [أنظر كتابه وجهة العالم الإسلامي]. وهذا ما نلمسه في واحدة من أهم مفرداته الفكرية ألا وهي الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية [انظر كتابه شروط النهضة] .

*** نسجّل هنا نصّين يحيكان نموذج الفكرة الدينية ذات الفعالية الاجتماعية المفقودة، التي كانت موضع نقد من قبل مالك بن نبي، وهي، بعبارة أخرى، تجسد إيمانا يفتقر إلى عبقرية الأرض؛ عموديته السماوية لم تنعكس في أفقية أرضية تجسّد مفهوم الخلافة الإنسانية في الأرض. ولعل سبب هذا البتر أو الخلل في الإيمان الشرقي يكمن في البنية الفكرية سواء المكتسبة أو المتوارثة التي تسجّل انحرافا عن الخط الحضاري التصاعدي الأول. ومن هنا ضرورة الإصلاح الديني الثقافي المعرفي، الذي من شأنه أن يخلق ما أطلق عليه بن نبي في كتابه (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) بـ «لحظة أرخميدس» التي تجعل من الفكرة الصادقة فعّالة، راجع [بن نبي، مالك : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر : بسام بركة، أحمد شعبو، الناشر : دار الفكر بدمش، دط، 2002م، ص 103 - 104] .
النص 1 : «إن طائر النفس المشرقية تحليق بلبلي لا نسري، تحليق تغريدي فوق الواقع، لا انقضاضي على الواقع، وهو سفر التعب لا سفر الرسالة. عين البلبل لا ترى أرض انطلاقها أما عين النسر فترصد حركة الأرض. الطائر الشرقي يسقط في أغنية اللامرئي لا كالنسر الغربي يسقط في الزمن» [طوق، بوليس : النار والنور في الفكر=

وفي موضع ثان، يشير إلى البنية المعرفية لحركة الإصلاح بقوله «غير أن الحركة الإصلاحية تعطي انطباعا بأنها تسعى لتجسيد هذا التغيير الأساسي بوسائل البلاغة العربية فقط. فقد كان الأمر يبدو لنا وكأنه إصلاح النحويين»، فالبنية المعرفية هنا كانت متشكلة أساس من علوم اللغة من بلاغة ونحو، أو فقهيات وكلاميات، مما لا يفيد فائدة فعلية في إطار الصراع الفكري من جهة، ولا يجدي في إصلاح الفرد (هدف الإصلاح الأول) من جهة أخرى، فقد كان شعار الحركة الإصلاحية* هو الآية الكريمة ﴿... إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ...﴾ [الرعد / 11]، نراها تشير إلى أهمية إصلاح الإنسان في فعل التغيير، وهنا تظهر البنية المعرفية للإصلاح وهي عاجزة عن تحقيق كفاية هذا الشرط الفردي الأساس، فبناء الإنسان لا يتوقف على الفقه والبلاغة، وإنما يحتاج خطة متكاملة تتقاطع فيها فروع علمية نظرية وتطبيقية كثيرة .

وقد كان لهذا العقل الميّال إلى البيان، إسقاطات واقعية ذات شأن، فقد كان يتم من خلاله الحكم على الأكفأ والأصلح، وبإسناد الشيخ ابن باديس مصالح الجمعية بباريس إلى شيخ الورتلاني فقط لأنه «كان ربما نجمه يسطع في صنعاء أو القاهرة حيث يمكن للكلمات البرّاقة والمفخمة أن تقوم مقام الأفكار ولكنها تعجز عن ذلك في بلد غربي يفرض ليس فقط معرفة دقيقة بخصوصياته ولكن يتطلب أفكارا واضحة ومضبوطة...» يتضح المعيار المعتمد في تميز الأنسب وذلك لدرجة معرفته بالبيانيات والفقهيات، التي لا تغني في حلبة الصراع الفكري فتيلا .

تلتقي المقاربة العلمائية هنا مع مقاربة «الوطنيين»، في نقطة تقاطع، يعبّر عنها بن نبي بكل مباشرية بـ (السطحية) في فهم المجريات، وهو ما سجّله «ومهما يكن، وكلما تعمّقت في فهم الأشياء، بدت لي مقاربة «الوطنيين» و«العلماء» سطحية، فالطرف الأول يعتقد أن بإمكانه حل قضية سياسية بالمهرجانات الخطابة في قاعة بوهلييه أو في قاعة لاميتييل، أما الطرف الثاني فكان يعتقد أنه بمقدوره حلّه بالنحو العربي».

العالمي الناشر : دار نوبيليس، بيروت، 2000م، ص 324]. (انقضاض على الواقع / رصد حركة الأرض / السقوط في الزمن = عبقرية الأرض) .

النص 2 : «فتطور الفكر الشرقي لا يهدف إلى تأمل الكون المنظم kosmos، وإنما إلى الصلة بين النفس المفردة المحتاجة إلى النجاة وبين ربها؛ ذلك أنه اذا اقتصر كل الاهتمام على النجاة الشخصية وعلى التوتر بين الكمال الإلهي والنقص الإنساني، أصبحت العين عمياء عن العالم الخارج عن الذات الخاصة، ولم يعد ثمّ تفكير في نظم العالم الموضوعية» [روح الحضارة العربية / 52] . (تأمُّل الكون المنظم / إبصار العالم الخارج عن الذات الخاصة / التفكير في نُظُم العالم الموضوعية = عبقرية الأرض) . بخصوص تعميم هذا الاعتقاد وجعله طابعا ميّز العقل الشرقي فإن للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه رأي معاكس وهو المثبت في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب)، راجع خاصة الصفحات من 76 إلى 255، والتي تكشف لنا عن عبقرية الأرض الشرقية (العربية الإسلامية) [هونكه، زيغريد : شمس العرب تسطع على الغرب (فضل العرب على أوربا)، تر : فؤاد حسنين علي، الناشر: مكتبة رحاب، الجزائر، دط، 1986م] .

* راجع : العفن، ص 108 .

من خلال فهم ما سبق تكون الإجابة بـ(النفي) هي الإجابة الصحيحة على السؤال إذا ما كانت المكونات المعرفية لحركة الإصلاح (العلماء) التي تمثّلت في الفقهيات والكلاميات والبلاغيات والأدبيات بالطريقة التقليدية (الأزهرية والزيتونية) متناسبة مع حجم مهمة الإصلاح المتوقّعة في سياق الذي رأيناه .

2 - 1 - 2 ـ النقــد العملــي للعلمائيــــة

في هذا الجزء سنتطرق لعرض الآراء النقدية لمالك بن نبي للوجه الثاني من العلمائية، وهو الجانب العملي. ونقصد به سلوك العلماء ـ المنبثق عن بنيتهم الفكرية ضرورة ـ، ويتفرّع هذا النقد إلى قسمين أيضا، الأول يفحص أخلاقيات العلم (الروح العلمية) عند العلماء، والثاني ينظر في مدى تطابق معتقداتهم مع أفعالهم (المصداقية) .

2 - 1 - 2 - 1 ـ مشكــلة الــروح العلميــــة

نقصد بالروح العلمية (L' esprit de la science) أخلاقيات العلم، وليس العلم نفسه. ولا يمكن لهذه الروح أن تُعرف إلا من خلال أخلاق من تجلّت فيه، فتنعكس في حالات كـ الموضوعية والتواضع إلى غير ذلك من الأخلاقيات التي ينبغي أن تتوفر لدى العالم أو السالك في طريق العلم. هذه الأخلاقيات هي شيء آخر غير العلم (المعرفة المكتسبة) ومهمتنا هنا هي فحص مدى فاعلية هذه الروح عند العلماء الجزائريين، بعد التحقق من وجودها أولا.

كان لزاما، ونحن نتحدّث عن الروح العلمية، أن نتوقف عند حادثة الحوار الذي دار بين مالك بن نبي والشيخ العقبي، فقد كشف هذا الحوار لبن نبي إلى أي مدى يفتقد العلماء المسلمون الجزائريون لهذه الروح. وكان موضوع الحوار هو المحاضرة التي ألقاها بن ساعي في العاصمة*. بعد هذه الجلسة مع الشيخ العقبي، إضافة إلى تراكمات أخرى، ستهتز ثقة مالك بن نبي بالعلماء[1]، كما صرّح هو بذلك، ومن هنا أهمية هذا الاختيار .

ونسجّل أولى ملامح الموقف النقدي للسلوك العلمائي في قول مالك بن نبي لما كان ينتظر قدوم الشيخ «ومهما يكن، فقد كان علي أن أنتظر عودة الشيخ العقبي مما

* محاضرة بن ساعي التي أشرنا إليها قبل الآن (السياسة كدرس من القرآن) .

[1] ينظر : العفن، ص 46 .

اصطلح على تسميته ((درسا)) كان يلقيه في أحد مساجد العاصمة)) [1]، ولا يخفى على قارئ هذا الكلام الإيحاء السلبي في قول بن نبي (مما اصطلح على تسميته درسا) وكأنه تهكّم يعكس تشكيكا في قيمة نشاط الشيخ العقبي، وهذه النظرة لم تنشأ عند بن نبي إلا بعد معرفة متراكمة بالعلماء وطبيعة تفكيرهم ونشاطهم باعتبار الأحداث التاريخية والسياقات الاجتماعية في إطار الصراع الفكري في البلاد المستعمرة [بفتح الميم] . وباقي الملامح النقدية الأخرى نتناولها نقطة نقطة كالتالي :

2 - 1 - 2 - 1 - 1 - الوثوقيـــة

بعد قدوم الشيخ العقبي طرح مالك بن نبي عليه هذا السؤال ((أيها الشيخ، ما رأيكم في محاضرة بن ساعي؟ لقد سبق وأن قيل لي هنا أنها كانت مؤثّرة)) أجابه الشيخ العقبي ((بالفعل كانت محاضرة بن ساعي حسنة ولكنها عبارة عن سرقة أدبية أو قل عدّة سرقات أدبية مركبة)). شعر بن نبي بإحباط أمام هذا الاتهام غير المتحفّظ في اللهجة وفي الحكم، ((أذهلني هذا التأكيد في وضوحه وخلوه من أي تحفّظ أو تردد في الصوت أو في الحكم)). وذلك لأن بن نبي كان رفقة صديقه بن ساعي أثناء تأليفه لهذه المحاضرة ((لقد أصابني الإحباط لأني أعلم شخصيا كيف تم تحرير هذه المحاضرة في غرفة صغيرة بنزل بباريس))، فلا يمكن أن تكون مجموعة سرقات أدبية مركّبة كما اعتقد الشيخ وبقوّة. تكشف لنا طريقة إجابة الشيخ العقبي عن بعض المثالب كـ : الوثوقية* التي أفضت إلى عدم التورّع في إطلاق الأحكام دون تثبّت، وهذه الصفة تدلنا على الروح العلمية المفقودة وإن وُجد العلم .

لم يتوقف الشيخ العقبي عند هذا الحدّ بل أضاف قائلا ((زد أن بن ساعي لم يتمكّن حتى من تلاوة نصّه جيدا))، فكان شعور بن نبي كما عبّر عن ذلك ((لقد خارت عزيمتي أمام هذه العقدة التي لمست فيها جملة من العيوب كالغيرة والكذب والدناءة)) .

2 - 1 - 2 - 1 - 2 - مركزيـــة المشــــرق

اعتقاد ساد عن العلماء الجزائريين بأن العلم والنبوغ لابد أن يكون شرقي المصدر، فإن نبغ أحد من المغاربة، شُكّ في قيمته ونُظر إليه باستصغار، ولا يتوقف الأمر عند مجرد الاعتقاد (الشك في القيمة والنظرة المستصغرة) بل يُترجم هذا الاعتقاد

---

[1] المصدر السابق، ص 35 .

* الوثوقية / القطعية dogmatisme، حالة ذهنية تنتج في ظل غياب الروح العلمية فيرى الوثوقي أو القطعي في متبنياته ((حقائق لا تنازع، وتعلو على النقد)) فيُكابرَ على الوقائع ولا يتورّع في إطلاق الأحكام. ينظر [الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السوفياتيّين، تر : صادق جلال عظم، جورج طرابيشي، الناشر : دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط5، 1985م، ص 376] .

إلى سلوك، فتُمارس ضد النابغ هاهنا ممارسات إما موجبة كغمز قناته (الاعتداء الرمزي) أو ممارسات سالبة كمؤامرات الصمت (التهميش) .

يتابع بن نبي سرد أقوال الشيخ العقبي وهو يحاول البرهنة على كلامه السابق «إني أؤكد أن بعض مقاطع هذه المحاضرة لا يمكن أن تكون بقلم جزائري يحرر بالعربية. فلا نجد مثل هذا الأسلوب إلا في المشرق». فهذا النص اذن يكشف لنا عن مشكلة (المركز والهامش)، فجلّ علماء الدين في تلك الفترة، كان لديهم ذاك التصور التقديسي للمشرق، باعتبار أن الشرق «منبر الأنبياء»[1] ومن الشرق «يتجلى النور عبر التاريخ»[2]، وهذه النظرة ليست بدعا فهي متوارثة، إذ من المعروف في تراثنا الإسلامي أنه كان لابد على العالم أن يسافر إلى المشرق استكمالا لرحلته العلمية، ولنيل المشروعية لدى قومه أيضا عند عودته. وهذا التقليد يعبّر عن المشكلة المركز والهامش في الثقافة العربية، أي تبعية المغرب إلى المشرق، والإعلاء من شأن كل هو مشرقي، في مقابل الانتقاص من / والريبة في كل ما هو مغربي، وتجد هذه النظرة خاصة لدى الفقهاء، وموقف الشيخ العقبي يدلنا على هذا، ولعل ما يُفسر لنا لجوء الشيخ العقبي لنسبة محاضرة بن ساعي إلى قلم مشرقي هو طبيعة المحاضرة نفسها، لقد كانت طرحا لم تعتد عليه الذهنية العلمائية في تلك الفترة، يقول بن نبي «فقد نجح بن ساعي بالفعل وباقتدار من أن يستخلص من القرآن «مبادئ سياسة النصر» (أقول اليوم «سياسة الفاعلية») وأن يجمع الكل في شكل أدبي لم يعتد عليه «العلماء» الجزائريون» فتميّز الطرح وشذوذه عن النمط الفكري العام أدى بالشيخ العقبي ألا يتردد في نسبته إلى قلم مشرقي، بدون أي دليل معتبر. وهذا لم يكن ليحصل لولا (الروح العلمية) المفقودة عند العلماء .

2 - 1 - 2 - 1 - 3 - تضخّـــم الذات

هذا العيب أيضا لمسناه في النماذج التي صاغها بن نبي في مذكراته، حيث يرى العالم لنفسه فضلا على غيره بسبب ما حواه من ثقافة دينية ويلقيه هنا أو هناك من دروس في فقهية، فيتوقّع بناء عليه ــ وإن لم يبد ذلك ــ معاملة خاصة، وهذا ناشئ من تضخّم الذات عند صاحبها، وسنلحظ هذه العلّة وانتقاداتها في أراء بن نبي الآتية.

لم يغفل بن نبي أن ينقل لنا انطباعاته عن حال الشيخ العقبي وبعض ما ظهر منه، أثناء المحاورة، وقد استخلص منها بن نبي عدة معان، كما هي عادة هذا الفيلسوف في تجاوز (عالم الأشياء) وصولا إلى (عالم الأفكار)، يقول «كان الشيخ يتأوّه من التعب، تعب تسبّبت فيه الدروس التي كان يلقيها في المسجد ومن العرق الذي كان يُندّي جسمه.

[1] طوق، بولس : النار والنور في الفكر العالمي، ص 15 .
[2] المرجع ذاته، ص 254 .

وقد صدمتني من البداية شكواه المبالغ فيها لأني كنت أرى في هذه المبالغة شهادة عن هم جسدي باعتباره علامة أو عيب «عالم» يسعى لإحداث انطباع لدى الناس بأنه مرهق فكريا. و«عالم» لا يشتكي من بواسيره أو من زكامه ليس بعالم كبير» [1]. من خلال هذه الدلالات التي بدت على الشيخ في تلك اللحظة، فهم بن نبي عقلية الفقيه الجزائري، الذي يحاول أن يترك انطباعا لدى الآخرين عن جهوده المبذولة في بثّ العلم، أو بعبارة أخرى أفضليته كعالم* .

ولعل الذي جعل مالك بن نبي يتنبه إلى مثل هذه الإيحاءات، هو (فعل المقارنة)** فقد أتاحت له سنوات تواجده بفرنسا ولقاءه بنماذج من العلماء هناك، عقد مقارنات بين هؤلاء وبين العلماء الجزائريين، بين الذهنية العلمائية المعاصرة له والروح الأوربية الحديثة. فهو يتحدث عن (تواضع) مدير المدرسة (مدرسة الميكانيكا والكهرباء) التي درس فيها، ويصفه بـ«قديس العلم» و«بحر العلوم»، يقول «وكان مدير المدرسة، بخاصة، يتجلى لي في صورة قديس يتوجه للعلم وينذر نفسه له»، وسبب هذا الانطباع هو حوار أيضا يذكره بن نبي، في أول لقاء جمعهُ بمدير المدرسة «...فقد أسرتني قداسته منذ لقاءنا الأول عندما ذهبت لتسجيلي. وقد خاطبني يومها قائلا : ـ السيد بن نبي، عندما يشغلك سؤال تصعب الإجابة عنه، فاطرحه في «دفتر الأسئلة» الموضوع في متناول التلاميذ. وسيتولى الأساتذة الإجابة عنه أثناء الدروس. وإذا تعذرت الإجابة عنه في الحين، لأننا لا نعلم كل شيء، سندرسه ونبحث فيه خصيصا حتى نجيب التلميذ في حدود إمكانياتنا». مثل هذا (التواضع) الذي أحسه بن نبي من هذا النموذج لعالمٍ غربي، جعله يقول «ما أثار انتباهي في أوربا هو روح العلم (L' esprit de la science) أكثر من العلم نفسه»، والروح العلمية مُقدّمة على العلم من حيث القيمة ومن حيث الزمن، ولعل أهم مظهر من مظاهر الروح العلمية هو (التواضع) إذ يقول بن نبي أن أكثر ما أدهشه في هذا الرجل العالم «التواضع الذي أبداه هذا «البحر من العلوم» الحقيقي وهو يعترف بأنه لا يعلم كل شيء». ويضيف بن نبي في سياق المقارنة «وتذكرت بإشفاق تحذلق «العلماء» الجزائريين الذين لم أعرف منهم أحدا يُقرّ بجهله ويعترف بقصور علمه في مسألة من المسائل». نلاحظ هنا فعل المقارنة، الذي تمكّن بن نبي من خلاله أن يميّز مثالب العلماء الجزائريين ومميزات الروح العلمية في أوروبا .

وفي سياق إبراز قيمتيّ التواضع والبساطة كأهم تمظاهرات الروح العلمية في مقابل وهم الأفضلية أو تضخّم الذات الملحوظ عند العلماء الجزائريين، نذكر قصة لقاء بن نبي بالمستشرق ماسينيون في إحدى محاضراته التي ألقاها في نادي اتحاد الشبان

---

[1] العفن، ص 45 والتي تليها .

* راجع [العفن / 178، 179]، [مذكرات شاهد قرن / 422، 423] .

** انظر أثر المقارنة أو الوعي المزدوج في الفكر البنابي «غير أن الوعي المزدوج المكتسب قد أحدث تأثيرا خاصا على طباعي» [العفن / 49] .

المسيحيين. والجامع المشترك بين قصة المدير مدرسة الميكانيكا والكهرباء وقصة ماسينيون هذه، هو كون الحادثتين عملتا معا على ترسيخ هذا الانطباع في ذهن بن نبي، أي انطباعه عن أثر الروح العلمية في فاعلية الحضارة الغربية*. فما نموذج المدير وماسينيون اللذين جسّدا حضور الروح العلمية إلا أيقونات هذه الحضارة في عنفوانها. كما هو الشأن بالنسبة للشيخ العقبي ومن سلك مسلكه من العلماء الجزائريين فقد كانوا أيقونات لغياب الروح العلمية في حضارة هي في مرحلة انحطاطها .

ونموذج ماسينيون (عالما)** متخلّقا بهذه الروح العلمية الذي يُعتبر التواضع أهم تمظهراتها، كما أسلفنا، ترك أثره في مالك بن نبي، كما يكتب «عندما انتهت المحاضرة التففنا حول البروفيسور [ماسينيون]. كان يحمل خريطة جغرافية كبيرة استعان بها في محاضراته وطواها وحملها تحت إبطه. وكان يستعد ليركب ميترو الأنفاق في هذه الساعة المتأخرة للعودة إلى منزله. لقد تأثرت ببساطة هذا العالم المسيحي...» اذن بساطة ماسينيون أثّرت في ذائقة بن نبي، بالرغم من العلاقة بينه وبينه والتي تكشف عنها مذكرات العفن لأول مرة على نحو صريح مفصّل، وقد سلّطنا الضوء عليها في الفصل الأول. في نفس لحظة التأثر ببساطة هذا العالم، يتخذ بن نبي من جديد موقف المقارنة الذهنية ليُسجّل «لقد تأثرت ببساطة هذا العالم المسيحي وحضر مخيلتي تحذلق «بئر العلم» المسلم في الجزائر الذي يُبدي وجها مكشّرا ويظهر الاستياء ويتأفف من تعب يحرص على إبرازه بعد درس صغير يلقيه في الفقه. هذا دون أن ننسى العديد من المرافقين الذي يحملون عنه أغراضه» .

أخيرا وعلى إثر الحوار الذي دار بين بن نبي والشيخ العقبي ترسّخ اعتقاد بن نبي في عدم جدوى العلماء المسلمين في الجزائر، بعد ما سمعه من كلمات الشيخ التي تعكس مرض «الثقافة الإسلامية». «صدمتني هذه الكلمات ومستني في أعماق شعوري وفي مناصرتي للإصلاح وفي أنفتي وذكائي (...) واهتزت ثقتي في العلماء»[1].

2 - 1 - 2 - 2 - مشـــكلة المصـــداقيـــة

في هذا القسم الثاني من النقد العملي للعلمائية يُسجّل بن نبي حالة غياب التطبيق، وهي خصيصة سلبية أخرى بارزة من خصائص السلوك العلمائي. أي الفصل بين الفكرة والعمل، كأن يتبنى العالم فكرة ما ولكنه لا يطبّقها، ليس لظرف قاهر يفوق

---

* يرى مالك بن نبي أن الروح العلمية هي (كل فاعلية العالم الغربي)، «ثم أدركت بعدها، أن هذه «الروح» بهذا التألق وهذه الجاذبية الإنسانية، أي كل فاعلية العالم الغربي، تمرّ دون أن يتنبه لها أحد من غالبية المسلمين» [العفن/ 51] .

** أي أننا نتناول هنا الجانب العلمي المحض في شخصية ماسينيون، بعيدا عن ملابسات الصراع الفكري في البلاد المستعمرة [بفتح الميم]، كما تناولناه في الفصل الأول .

[1] العفن، ص 46 .

مسؤوليته، وإنما لجبن كامن* في حال كان هو صاحب الفكرة، أو لقِصَر نظرٍ يمنعه من رؤية العوائد المفيدة للفكرة** في حال كانت الفكرة لغيره .

والاقتباس الآتي من المذكّرات قيد الدراسة يؤكّد هذين السببيْن اللذين حددناهما على أساس الاستقراء، يقول بن نبي «يجب أن أقول الآن وعلى ضوء تجربة طويلة، أن علماءنا كانوا دوما على قدر من الجهل يحجبهم عن إدراك الأفكار وعلى قدر من الجبن لتطبيقها إذا كانت ثمّة أخطار». فقولنا لـ"جبن كامن" يؤكّده قول بن نبي «وعلى قدر من الجبن يمنعها أذا كانت ثمّة أخطار»، وقولنا لـ "قصر نظر*** يمنعه من رؤية العوائد المفيدة للفكرة" يؤكّده قوله «كانوا على قدر من الجهل يحجبهم عن إدراك الأفكار»، وكلمة الإدراك في هذا السياق تشمل إدراك الفكرة في ماهيتها وآثارها وفي سياقها ونحو ذلك. ومن خلال التحليل الآتي، سنحاول الوقوف عند هذه الآفة وذلك بعرض لنماذج متنوعة نستحضرها من المذكّرات قيد الدراسة .

في ثلاثينيات القرن الماضي****، أصدرت الإدارة الاستعمارية «مقرّر ميشال» والذي يقضي بمنع المساجد على العلماء. وكانت ردّة فعل العلماء أن احتجّوا على هذا المقرّر، فالشيخ العقبي مثلا، كما علّق بن نبي «لم يكن ليتحمّل فكرة منعه من الذهاب للصياح والتصبّب عرقا، كل مساء، في مسجد الجزائر العاصمة» وتمثلت ردّة فعل الشيخ العقبي في نشر رسالة باسم كافة العلماء حرّرها الشيخ نفسه وطبع منها الآلاف من النسخ، ثم.. لم يدر الشيخ «ماذا يصنع بهذا العدد الكبير من الرسائل»، إذ «من السهل قول شيء ولكن من الصعب تحقيقه» . قرّر الشيخ أخيرا إرسال هذا المخزون الكبير من الرسائل إلى بن نبي في باريس، ولم يرفض مالك بن نبي ذلك لميله المعلوم***** للإصلاح الجزائري (العلماء)، رغم مآخذه عليهم «طلب مني الإصلاح الجزائري خدمة فلا تتصوّرا أنني سأرفض أداءها».

ومن خلال سلوك الشيخ العقبي هنا نلمس هذا الخلل، الذي نحن بصدده، (مشكلة المصداقية) والسبب واضح. على كل حال، فقد كانت استجابة مالك بن نبي فورية، إذ

---

* كموقف الشيخ العقبي الذي نعالجه هنا. وهو مُشابه أيضا لموقف الشيخ العربي التبسي راجع [العفن / 177]، هذا الجبن أو رد الفعل المازوخي الذي أطلق عليه بن نبي بدون مواربة بـ «ردّ الفعل النسوي أمام المسئولية الحقيقية» راجع [العفن / 118]. لذلك لا يمكننا أن ننقص من أو نزيد في هذا الموقف الحاد لبن نبي من العلماء نظرا لخطورة موقعهم وحساسيته وتأثيره، بل إنا نرى مالكا في مواضع أخرى يتحدث عن (فضائح) و (نفاق) العلماء راجع [العفن / 155] .

** مثل ابن باديس [العفن / 45]، والعربي تبسي [العفن / 178 - 179، 182] والفضيل الورتلاني [العفن / 165].

*** وقصر النظر ناتج ضرورة عن الجهل .

**** نرجّح أن تكون سنة 1933م، بالاستناد إلى سياق النص، راجع [العفن / 65، 65] .

***** انظر [العفن / 65، 66، 81] على سبيل المثال لا الحصر، والتي تؤكدّ ميل مالك بن نبي إلى العلماء الجزائريين (حركة الإصلاح الجزائري) رغم مآخذه العديدة والشديدة عليهم .

قام فور تسلّمه للمخزون بتحريض الطلبة الجزائريين، ثم حرّر رسالة موجّهة إلى الإدارة، وتم نشرها في جريدة La Défense، (الدفاع)، وتم نشرها أيضا في جريدة أخرى تصدر بالعربية في الجزائر العاصمة. ومن جهة أخرى قام بن نبي بتجنيد بعض الطلبة الذين قبلوا حمل وتوزيع المنشور معه. ولم يتوقف مالك عند هذا الحدّ بل ألقى بالقضية في الساحة الفكرية «قدرت ورفاقي أنه من الأفضل إرسال المنشور لبعض المخاطبين عبر البريد، فشاركنا في جمع مساهمات لتشكيل «صندوق للدعاية». وبهذه الطريقة استطعنا أن نوصل الخطاب إلى برلمانيين وكتاب وصحافيين...»* .

ونلاحظ الآن كيف تتخذ الفكرة عند بن نبي آفاقا أوسع وكيف استطاع بفلسفته القائمة على فكرتي (العمل) و(الواجب) أن ينقل الفكرة من حيّز الإمكان إلى حيّز الفعل فتتخذ لديه شكل المشروع الإيجابي الحي الذي يجسّد مفهومه للفاعلية. هذا بالرغم من أنه لم يكن صاحب الفكرة. أي فكرة الاحتجاج ضد «مقرّر ميشال». فما القول لو كان هو صاحب الفكرة. وفي المذكرات التي بين أيدينا أمثل عديدة، تؤكّد على مصداقية مالك بن نبي في مطابقته التامة بين الاعتقاد والممارسة، ومن ذلك خططه الإصلاحية التي كان ينوي تحويلها إلى مشاريع عملية في مختلف القطاعات أينما حلّ وارتحل، والأمثلة على هذا كثيرة وهي مبثوثة في حنايا سيرته .

لم يتلق بن نبي وهو يخوض هذه المعركة الإعلامية أي دعم، لا من محترفي البوليتيك أصحاب (وطنية المنصات) كما لقّبهم، ولا من العلماء أنفسهم موضوع مقرر المنع! أما بالنسبة لأولئك يقول «وبينما كنّا نكدّ ونجهد أنفسنا من باب إلى آخر، كان ممثلو «الوطنية» يتباهون في الحي اللاتيني وينتظرون موعد مهرجانهم الخطابي القادم». وأما بالنسبة للعلماء «لم يمدّوني ولو بفلس واحد لمواجهة مصاريف المهمة في مدينة كل شيء فيها بثمن وبخاصة الانتقال من نقطة إلى أخرى بوسيلة ميترو الأنفاق» . وكتب أيضا في السياق ذاته «أما «العلماء» فلم أعثر لهم على أثر» .

هذا ويمكننا القول بأن مالك بن نبي قد استشفّ الحالة العقدية العميقة عند العلماء والتي كانت مبعث هذه السلوكيات المتمثّلة في التكاسل والتخاذل والجبن في السياق الصراع الفكري والأحداث التاريخية. فهو يسجل نصا رمزيا أقرب إلى روح التهكّم والنقد الساخر، وفي نفس الوقت يحيط فيه بأهم خصائص العلمائية :

«إنهم يحبون الجنة طبعا، ولكن على شرط وصولها بتأن وببطء**، وببطن شبعان***، وبفكر خاو. وأن ينتظرهم ملك ـ أقصد مازحا شكل ملك ـ يقول لهم :

* وفعلا لم تكن النتيجة مخيبة «وكانت الجريدة الوحيدة التي لمسنا فيها أمرا يعنينا هي «L'Action» (النشاط) الملكية» [العفن / 67] .

** بينما نرى عند بن نبي سرعة الاستجابة وإيجابيتها وفعاليتها، (تجربة نادي التربية والتعليم في شارع شابولييه بمارسيليا كمثال على هذا) .

«ادخلوا، أيها السادة، أنا أعلم أنكم تعبتم كثيرا في هذه الحياة الدنيا غير أن فُرُشا ناعمة تنتظركم» . إنه نقد لإيمان أنديجيني اطمأن لحاله، وضمن مصيره بأقل التكاليف. وما مثل هذا الإيمان إلا تجلّ من «تجلّيات الثقافة الإسلامية» التي جعلت من القرآن كتاب الكلمة الطيبة وليس العمل الصالح على حد تعبير مالك بن نبي. وقد انتقد بن نبي هذه الثقافة في عدد من المواضع في مذكراته واعتبرها «عاهة أصلية»*** مشتركة بين العلماء الجزائريين من إنتاج الأزهر والزيتونة، «..أصبحت استفظع ثقافة الأزهر والزيتونة التي تقتل الضمائر والأرواح واعتبرها أسوأ كارثة يمكن أن تُهدد العالم الإسلامي. وحتى يعيش الإسلام أو يبعث من جديد في الضمائر، يجب تخليصه مما يُسمى «الثقافة الإسلامية»، هذه الثقافة التي تلوّث الأرواح وتذل الطبائع وتضعف الضمائر وتخنّث الفضائل» .

بعكس إيمان بن نبي نفسه الذي يصفه في أحد المواضع بقوله «لم يكن إيماني تأمليا وحسب بل عمليا. فقد أصبحت ذلك العقل البراغماتي والعلمي الذي لا يمكن لواقعيته ودقته إلا أن تفاجئ عقولا تعودت عدم الدقة وغياب الواقعية». لذلك أظْهَر إسلاما أقلق الإدارة الاستعمارية «إذ كنت أكشف لهم عن إسلام لا علاقة له بإسلام الأندجين «الأهالي» ...». ويشير أيضا إلى فهمه الخاص للإسلام في موضع آخر كمقابل لـ الثقافة الإسلامية**** في سياق حديثه عن بعض علماء الجمعية «كنت بالطبع أتفهّم موقفه، فقد كان يدعو لـ «الثقافة الإسلامية» بينما كنت أدعو للإسلام والحضارة» .

*** بالكاد كان يجد بن نبي قوت يومه، ومع ذلك لم يثنه هذا عن متابعة سيره، أو التخلي عن أفكاره. راجع [العفن / 160] .

*** ينظر [العفن / 150] .

**** بعض مظاهر هذه «الثقافة الإسلامية» ـ التي أفرزت نماذج علمائية كما رأينا، بل ساهمت إلى جانب ذلك، في تدهور العالم الإسلامي ـ تمثلت في تلك التفسيرات المحشوة بالخرافات الإسرائيلية والإغريقية، وقد كان بن نبي صارما في فصلها فصلا تاما عن جوهر الإسلام، ومن مظاهر هذا الفصل سؤاله العفوي والمباشر للبروفيسور ماسينيون عقب إحدى محاضراته «السيد الأستاذ، ألا تعتقدون أن تدهور العالم الإسلامي مرده، فضلا عن أسباب أخرى، إلى أن التفسير القرآني محشو بالخرافات الإغريقية والإسرائيليات ؟» [العفن / 37]، وكان هذا السؤال مما لفت ماسينيون إلى ضرورة مراقبة هذا الطالب .

2 - 2 - البنابيـــــة (كمقابـــل للعلمائيـــــة)

لم يكن إيماني تأمليا وحسب بل عمليا. فقد أصبحت ذلك العقل البراغماتي والعلمي الذي لا يمكن لواقعيته ودقته إلا أن تفاجئ عقولا تعودت عدم الدقة وغياب الواقعية..

ـ مالك بن نبي ـ

نحاول خلال المبحث الثاني توضيح خصائص ما اصطلحنا على تسميته بـ(البنابية)، ونقصد بها، على غرار العلمائية، (الخصائص النظرية والعملية) التي حكمت فكر الأستاذ مالك بن نبي ووجّهت سلوكه، والتي جعلت منه استثناء في وقته، وحتى يوم الناس هذا لا يزال يعتبر بن نبي مفكر استثنائيا في طرحه الممتاز بالعمق والكثافة، وإن كان، كما قيل، قد انتُفع بفكره إلا أنه لم يعط حقّه من الدراسة بعد*.

سنتناول البنابية في خصائصها النظرية ثم ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن خصائصها العملية. كما سلكنا في مفهوم العلمائية. وسنعرض خلال ذلك مجمل المشاريع التي اقترحها بن نبي في فرنسا والجزائر كمساهمات تُجسد مفهومه لـ "الفاعلية" (أي انتقال الفكرة من مجرّد الإمكان إلى الزمني)، وهذه الفاعلية في فكر بن نبي تعتبر ظلّا لفكره المجرّد، إذ أنك لن تجد عند بن نبي تلك الانفصالية بين الاعتقاد والعمل، كما وقفنا عليه عند الوطنيين والعلماء من خلال المصادر التي بين أيدينا. ولعل أبرز هذه المساهمات الفعلية ذات الفاعلية هي التي نظّمها بن نبي في مارسيليا بشارع شابولييه بتأسيسه لنادي التربية والتعليم، وتعتبر هذه التجربة فريدة من نوعها لأنها جمعت الخصائص النظرية والعملية معا، ونستشفّ أيضا من خلالها منهجا في التربية والتعليم قد أثبت نجاحه فعلا بنتائج محسوسة .

* يقول الدكتور عدنان إبراهيم في خطبة (إطلاق الانحطاط، ج2) عن مالك بن نبي «هذا العبقري الكبير، الذي انتفع بفكره ولكن لم يُدرس إلى الآن الدراسة التي يستحقها، الرجل لديه أنظار دقيقة جدا جدا وذكية حقيقية (...) كتبه كلها نافعة (...) وهو عميق جدا ومكثّف، كتبه صغيرة، لكن مكثّفة جدا» راجع موقع اليوتوب [عدنان ابراهيم : خطبة إطلاق الانحطاط ج2، من الدقيقة 35:50 إلى 36:14، بتاريخ 27 جانفي 2017م] .

2 - 2 - 1 - بنيـــة الفكـــر البنابـــي

نذكر هنا الخصائص المعرفية التي شكّلت فكر مالك بن نبي، وذلك بتسليط الضوء على القراءات الأولى التي ساهمت في تكوين عقل هذا الفيلسوف وما يتبعها من مواد معرفية كالمقاهي الثقافية، وكذا تأثير صديقه حمودة بن ساعي، وأخيرا الفهم الديني عند بن نبي وما ملابسات تكوّنه، كل هذا لتتضح لنا بعض مميزات البنية المعرفية البنابية وكيف تشكلت، وان كان الإحاطة بكلها أو جلها مما يتطلب بحثا أوسع من هذا .

2 - 2 - 1 - 1 - القراءات الأولى*

إن سنوات بن نبي التي قضاها في المدارس الفرنسية** (ذات الطابع الديكارتي) في الجزائر، كان لها أثر بالغ في مسيرته الفكرية، إذ يقول «فمن جهة عامة كان أساتذتنا الفرنسيون يصبون في نفوسنا محتوى ديكارتيا، يبدد ذلك الضباب الذي نمت فيه العقلية الميثولوجية التي تتعاطف مع الخرافات النامية في الجزائر»[1]. ولذا فإن بعض الأساتيذ قد كان لهم أثر في توجه قراءات بن نبي مثل الأستاذ بوبريتي Bobreiter، فقد قرأ (التلميذ La Disciple) لـ (لبيار بورجي)، وبن نبي لم يكن قارئا عديا بل كان يغوص في أعماق ما يقرأ وكل كتاب كان يقرأه يعمل على استثمار عوائده في فتح آفاق فكرية جديدة، فهو يقول عن (التليمذ) «هذه القصة فتحت أمامي عالم النفس الذي أتاح لعقل فتيّ كعقلي أن يتخلّى عن شيء من أوهامه وسذاجته»[2]. وكذلك قد أثّرت فيه بعض كتب الفيلسوف الفرنسي (كونديلا Condillae) وكان يصطحب معه كتاب الفيلسوف الفرنسي أينما حلّ وارتحل حتى في المطعم وفراش النوم، يقول عن هذا الكتاب «لست أدري أي كسب علمي تحصلت عليه مع كونديلا Condillae، إنما هذا الكتاب وضع عقلي وأفكاري وفضولي أو بالأحرى ثقافتي في اتجاه جديد» [3]. وكذا اكتشافه للأمريكي جون ديوي، الذي قال عنه «إذ كان لي اكتشافا

* من المهم أن ننبه هنا إلى أن الكتب التي ذكرناها، هي نفسها التي ذكرها بن نبي، ولاشك أن بن نبي قد قرأ كثيرا من الكتب لا يحصيها عدا غير صاحبها، إنما اقتصر بن نبي على ذكر بعض أهم الكتب التي شكلت منعطفات فكرية في تاريخه الثقافي في سنوّات التكوّن الأولى التي تعدّ حاسمة. سنقوم بترتيبها هنا بعد أن استقصينا أهمها (من المذكرات خصوصا) .

** مدرسة الميكانيكا والكهرباء مثلا. وينظر أثر تكوّنه التقني في فكره، انظر [العفن / 152] .

[1] مذكرات شاهد قرن، ص 65 .

[2] المصدر ذاته، ص 66 . وكانت مثل هذه الاتجاهات تأخذ به بعيدا، لولا دروس المشايخ في التوحيد وسيرة النبي والفقه، «فكانت بذلك مذكّرا قويا يعود بروحي إلى الطريق الصحيح» [العفن / 66] .

[3] مذكرات شاهد قرن، ص 144 .

أكثر منه عنوانا»[1]، وأيضا قرأ لآخرين من مشاهير أدباء وفلاسفة الغرب كـ (لامارتين) و(شاتوبريان) و(تونبي) و(اشبنجلر) و(جب) ...الخ. ومن علماؤهم المعاصرين نخصّ بالذكر (الأب مورو) في سلسلته (لتفهم) التي حوت علوم الجبر والهندسة والكهرباء والطبيعة والميكانيكا* .

أما عن الشرقيين، فيُحدّثنا بن نبي عن كتابين آخرين كان لهما تأثير في توجهه الفكري، هما : كتاب (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا، وكذا كتاب (التوحيد) لمحمد عبده. يقول عن الكتاب الأول (الإفلاس المعنوي) «لقد رسم لي كتاب أحمد رضا مزودا بالشواهد الكثيرة بهاء المجتمع الإسلامي في ذروة حضارته، وكان ذلك معيارا صحيحا نقيس به بؤسه الاجتماعي في العصر الحاضر» [2]، أما عن كتاب التوحيد لمحمد عبده، «فقد أعطاني مستندا للحكم على فقره المحزن اليوم» [3]. من ناحية أخرى فقد تعرّف من خلال الصالون الأدبي في مقهى (بوعربيط) على الأدب العربي القديم «وقد استطعت بفضل الشروح حول النصوص أن أقدّر وأفهم العبقرية الشعرية للجاهلية وأولئك الشعراء في بني أمية والعباس. واسترعى اهتمامي امرؤ القيس ولذّ لي سماع الشنفرى، واسترسل لي عنترة في أحلام البطولات. أما الفرزدق والأخطل وأبو نواس فقد مارس كل منهم إغراءه في نفسي»[4]، وليس الأدب العربي القديم وحده، بل الحديث أيضا استأثر باهتمام بن نبي «وفي جمع آخر من زملائي كنا نخوض في شعراء المدرسة الحديثة مع حافظ إبراهيم والرصافي، وقد اكتشفنا يوما شعراء العربية في المهجر كجبران خليل جبران وإيليا أو ماضي»[5] .

حدّدَتْ القراءات والمطالعات الأولى السبل التي سيسلكها فكر مالك بن نبي لاحقا، ونلحظ في هذه المطالعات الجمع بين العلوم الإنسانية والعلوم المادية والأدب. مما يشهد للثقافة البنابية بالاتساع والتنوّع، ونرى أن هذه القراءات مثّلت بعض أسس** المقاربة البانوراميه التي تميّز بها مالك بن نبي في أطروحاته .

[1] المصدر السابق، ص 115 .

* راجع أيضا بخصوص ثقافته العلمية الرياضية التقنية [العفن / 50، 152]، [مذكرات شاهد قرن / 219، 252].

[2] مذكرات شاهد قرن، ص 66 .

[3] المصدر ذاته، ص 66 .

[4] المصدر ذاته، ص 68 .

[5] المصدر ذاته، ص 68 .

** قلنا أحد الأسس.. إشارة إلى أن مكونات هذه الشخصية العظيمة بفكرها الاستثنائي ليست الكتب وحدها، وإنما التربية، والإيمان (الفعال)، وقصص جدّته التي يعتبرها مدرسته الأولى، وكذا أثر زوجته الفرنسية في ذوقه الجمالي، وكذا أسفاره وتجاربه وممارساته المتنوعة على جميع المستويات من أدّقها إلى أجلّها وعوامل أخرى. هذا تفاديا لرد نبوغ هذه الشخصية إلى الكتب وحدها، وإن كانت هذه الأخيرة تعدّ أحد الأسس الرئيسة في بناء الفكر البنابي ولا شك.

2 - 2 - 1 - 2 ـ أثــر حمــودة بن ســاعــي في مــالك بن نبــي

أثر حمودة بن ساعي لم يكن أثرا هامشيا في تكوّن الفكر البنابي، وإنما كان أثرا أساسيا بالغ الأهمية، لا يمكن التغافل عنه. بل يذهب بن نبي إلى أبعد من كون فكر بن ساعي مجرّد (أثر) إلى كونه (مادّة) أعطاها بن نبي قيمة منهجية. وهذه حقيقة تكشف عنها مذكرات (العفن) بكل صراحة «... وأعتقد، أيضا، أن أفكاري هي ذات الأفكار التي لم تنضج عنده أو قل إنها لم تقطف فتهاجر عندي»[1] ويقول أيضا بهذا الصدد «عندما كنا نتناقش حول القضايا كان هو الذي يقدم الأفكار في الغالب وكنت أرتبها وأضمنها معنى منهجيا»[2]. كان بن نبي يتجول مع بن ساعي رفقة بعض الأصدقاء في غابات الصنوبر فيأخذ بن ساعي في شرح فلسفته القرآنية التي تتجلى في تفسيره الاجتماعي للآيات القرآنية، وقد كان لفلسفة بن ساعي أثر قوي في نفس مالك بن نبي «كنت أستمع إلى طريقته في توجيه الآيات القرآنية لتتخذ تفسيرا اجتماعيا[*] لحالة المجتمع الإسلامي الحاضرة، وكان ذلك يؤثر في نفسي كثيرا»[3]. ويقول في نص آخر من مذكرات العفن «فقد علمني ومكنني من الولوج لـ «روح» القرآن بطريقة لم يكن لأستاذ أزهري أن يقدر عليها»[4]، ولبن ساعي الفضل في لفت انتباه بن نبي إلى أثر حادثة (معركة صفين)[**] التي سيؤرّخ بن نبي انطلاقا منها لنهاية مرحلة الروح وبداية مرحلة العقل في الحضارة الإسلامية[***]، هذه الحادثة التي حملت في طياتها كل التمزّقات التي ستصيب العالم الإسلامي لاحقا، مع أن أحدا من المؤرّخين لم ينتبه لخطورة أثرها[****]، «والفضل لصديقي فهو الذي كشف لي موقعة صفين المشهورة وأثار انتباهي لها»[5] .

فأثر حمودة بن ساعي في البنية الفكرية لمالك بن نبي، هو من الأهمية بحيث يمكن أن يكون وحده موضوع بحث مستقل، من خلال التوسّع أكثر في المصادر ذات العلاقة. وتكفي هذه النصوص هنا، والتي تمثّل شهادات صريحة من صاحبها، على

---

[1] العفن، ص 98 .

[2] المصدر ذاته، ن، ص .

[*] راجع : ولد أباه، السيد : أعلام الفكر العربي الحديث، ص 138.

[3] مذكرات شاهد قرن، ص 235 .

[4] العفن، ص 98 .

[**] هذه بعض المواضع التي حلّل فيها مالك بن نبي أثر موقعة صفّين على سير الحضارة الإسلامية، [العفن / 98]، [شروط النهضة / 47، 52]، [وجهة العالم الإسلامي / 29، 124،]، [الصراع الفكري في البلاد المستعمرة / 41].

[***] انظر على سبيل المثال كتابه (شروط النهضة) .

[****] مثلا يؤرّخ العالم والمفكّر الإسلامي محمد سعيد رمضان البوطي لبداية انحطاط الحضارة الإسلامية وميلاد التخلّف، من أواخر سقوط الخلافة العثمانية [البوطي، محمد سعيد رمضان : من المسئول عن تخلّف المسلمين، الناشر: دار الشهاب، باتنة ـ الجزائر، دط، دت، 46] . بينما يذهب بن نبي إلى أبعد من هذا فيرى أن الشرخ بدأ من معركة صفين، وما سقوط الخلافة العثمانية إلا نتيجة حتمية للتمزّق الأول .

[5] العفن، ص 98 .

الدور الخطير لفلسفة بن ساعي والتي اعتبرها بن نبي المفتاح الذي مكّنه من الولوج إلى روح القرآن .

نستخلص من هذين العنصرين، سمتين نظريتين مميّزتين للفكر البنابي، وهما : التنّوع، والأصالة في الفهم القرآن. هذا إضافة إلى سمات أخرى أشرنا إليها في مواضع شتى كإيمانه الفعّال (العملي)، وتفكيره العلمي، والتقني، والرياضي. ومذكراته وكتبه دليل على السمات التي بيّناها هنا. وننبه إلى أن ما أشرنا إليه إنما هو بعض السمات وليس كلها، فعقل مثل الذي توفّر عليه الأستاذ بن نبي من العسير (إذا لم نقل من المحال) الإحاطة الكاملة بمميّزاته النظرية ــ فضلا عن العملية ــ في هذا المقام .

2 - 2 - 2 ـ العمليـــة في الفكـــر البنابـــي

في هذا الجزء من المبحث الثاني، نسلّط الضوء على مفهوم مالك بن نبي عن فكرة «الواجب» و«العمل» ، ثم نعرض إلى ذكر بعض أهم نشاطاته مجسّدة لهذين المفهومين على شكل رؤوس أقلام مختصرة .

2 - 2 - 2- 1 ـ فكرة الواجب والمبدأ العملي*

نذكر هنا ميزة هامة من مميزات فلسفة مالك بن نبي، وهي ما يُكن أن نطلق عليها: ميزة (العملية)**، ومعناها، مبدأ العمل، الذي يرتكز على أساس فكرة الواجب. والذي يعني مزاولة العمل مباشرة بما يتوفّر من عناصر (إنسان، تراب، زمن) ولو في حدّها الأدنى البسيط. والكفّ عن المطالبة بالحقوق على طريقة الوطنيين «مُحترفي البوليتيك» «أصحاب المطالب الحازمة» ــ وهي الظاهرة التي سمّها مالك بن نبي بـ «داء الكلام» وهي عرض للمرض الأكبر (القابلية للاستعمار)ــ، وفي شروط النهضة يضرب مثال غاندي كمصداق على أولوية فكرة الواجب والتي تقتضي عملا «لقد تكلم

* استزادة للتوضيح بشأن مفهوم المبدأ العملي، والفاعلية راجع على سبيل المثال [تأملات / 123 - 138 (الفاعلية)]، [شاويش، محمد : مالك بن نبي، الناشر : دار الفكر بدمشق، ط1، 2007م، 41 - 42، 44] .

** راجع [مذكرات شاهد قرن / 389] تشبه فكرة العملية عند بن نبي إلى حد بعيد فلسفة اليابانيين، حيث يعتبون الكلمة عجرفة كبيرة أمام عظمة الطبيعة، لذلك لا نعثر على (لاهوت) في ديانة اليابانيين (الشينتو)، راجع [ياماكاجي، موتوهيزا : جوهر ديانة الشينتو (قلب اليابان الروحي)، تر : أمال حلبي، ط1، الناشر : المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ المغرب، 2011]. أنظر أيضا نقد مالك بن نبي لما أسماه بـ (داء الكلام) [مذكرات شاهد قرن / 389]، [وجهة العالم الإسلامي / 58 - 62] .

البعض في شأن هذا المعامل [الاستعماري] بلسان السياسة، فطالبوا بالحقوق التي هضمها الاستعمار، وأغفلوا الواجبات، وأصبح هذا الكلام من أروع مظاهر المأساة التي يُعانيها الجنس البشري في عصرنا. وتكلم عنه آخرون بلسان الواجبات كغاندي ففاز بحقوقه الكاملة»[1] ثم يعلّق على موقف غاندي «وكأنها نظرة قرآنية غير منتظرة من هذا المصلح البرهمي»[2] .

وتركيز الجهد على فكرة الواجب، بدل صرف الطاقة في المطالبة الكلامية بـ(الحقوق) ثم الإمعان في العمل. فإن تأدية الواجبات تقودنا حتما إلى الفوز بالحقوق حسب مالك بن نبي على مستوى الفرد والمجتمع معا في وحدة يعبّر عنها بن نبي في نفس الكتاب بقوله «ومن المسلّم به أن الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه، وربما لبناء مجده ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه، واستمرار نموّه»[3]، ومن هنا خطورة العمل الفردي من زاوية نظر بن نبي، إذ أنه نشاط متصل بمسئولية المحافظة على كيان المجتمع واستمرارية نموّه. ومن أجل هذا بالذات، أي من أجل فكرة (العمل) بالكاد كان يجد بن نبي أذنا صاغية «كان الآخرون يحدّثونهم عن «الحقوق» ويكلمونهم عن «الانتخابات»، وكنت أكلمهم عن العمل. فحتما لم يسمعني أحد»[4] .

هذا وقد كان مالك بن نبي في سلوكه الخاص، أحسن تجسيد لمبدئه العملي وفكرته عن الواجب، فلم نجد، لدى اطلاعنا على سيرته واستقصاءنا لنشاطاته ومشروعاته، ما يجعلنا نصنّفه كواحد من أولئك النظريين الذي «يتفلسفون بين أربعة جدران» على حد تعبير د. فؤاد زكريا. وإنما يلمس القارئ في الأحداث المدوّنة تلك المطابقة التامة بين الفكرة والعمل (المصداقية). والملاحظ أيضا أن سيرة مالك بن نبي أكبر من كتبه، وعند العودة إلى (العفن) و (مذكرات شاهد قرن) خاصة ثم بعض كتبه الأخرى عامة يتضح قولنا عن الأهمية القصوى للسيرة البنابية تربويا وعلميا وفكريا وروحيا ودينيا* وإذا كان فكر مالك بن نبي بهذه المميّزات، فإن سيرته تعد هي منبع لهذا الفكر، كما يشهد بذلك رفيقه عمر كامل مسقاوي حيث يقول هذه العبارة المهمة المقتضبة «... سيرته التي أسّست لفكره...»[5] .

---

[1] شروط النهضة، ص 147 .
[2] المصدر ذاته، ن، ص .
[3] المصدر ذاته، ص 97 .
[4] العفن، ص 152 .
* يمكن، وبدون أية مبالغة، لسيرة مالك بن نبي (كما هي مبسوطة في "العفن" و"مذكرات شاهد قرن" وبعض المصادر الأخرى كـ "في صحبة مالك بن نبي" لكامل مسقاوى ..الخ) أن تكون وحدها موضوعا لمشروع دراسة ضخم كثير الفائدة على جميع المستويات : النفسية والتربوية والروحية والتعليمية والتاريخية..الخ، حتى في فهمها للدين عموما وللإسلام خصوصا .
[5] مسقاوي، عمر كمال : في صحبة مالك بن نبي، ج1، ص 67 .

ونطرح هنا بعض الأمثلة* التي تبرهن صدق هذا الكلام، ونأسف في نفس الوقت على مصير هذه الأمثلة من المشاريع الوطنية وغيرها فقد كان «يتبخّر حماسها» بمجرّد انتقالها من حيّز الإمكان (الفكرة) إلى حيّز التنفيذ (العمل) كما علّق بن نبي على مصير أحد اقتراحاته الإصلاحية العملية بقوله «تبخر «الحماس الوطني» بمجرد أن أصبحت القضية عملا عوض مجرد كلام. فأدركت أن الناس في الجزائر تحب أن تتكلم عن «الوطن» ولا تحب خدمته»[1]. ويلاحظ في هذه المشروعات محاولتها بثّ روح التقنية والصناعة مما يعني، في حال نجاحها، أنها أول خطوة نحو (تحقيق الاكتفاء الذاتي)، والذي يعتبر خطرا فعليا في منطق الإدارة الاستعمارية. لذلك كان عامل الإدارة الاستعمارية وعامل العقلية الأهلية وحسن استغلال الأولى للثانية، أهم العقبات التي حالت دون تحقق هذه المشاريع البنابية «في نهجنا، كل شيء عرضة للخسارة مع شعب لا يفهم المواقف المثيرة ومع إدارة استعمارية تعرف بالمقابل كيف تقدّر الخطورة الفعلية للأمور»[2].

* ننبّه إلى أن غرضنا من خلال ذكر بعض الأمثلة، ليس الإشارة إلى أهمية المشاريع في ذاتها، وإنما لفت الانتباه إلى الروح البنابية الفعالة، ونهجها في الفكر والسلوك، تأمل في هذا «... وهكذا قمت بتحرير مقال عرضت فيه كيف أن «المطالب» تصبّ في خانة مصالح الإدارة الاستعمارية التي كانت على يقين بأن المسلمين لا يقومون بشيء أبدا من تلقاء أنفسهم» [العفن / 109]. ولم يكن من باب الصدفة أن يظل بن نبي تحت مراقبة الإدارة الاستعمارية من خلال أبرز مستشاريها (ماسينيون) وتعرضه إلى كل تلك المضايقات. إذ أن الوحيد الذي كان يفهمه ويقدر خطورة وعيه هو ماسينيون، فقد كتب في السياق نفسه «ها أنا أدرك الآن، للأسف، أن الشخص الوحيد الذي كان يفهمني هو ماسينيون» [العفن / 110]. وقد كان بن نبي مدركا لخطورة أفكاره وموقف الاستعمار منها «وأفهم على الأخص كيف يتلقى ماسينيون، المستشار التقني لهذه الإدارة، هذا المقال الخطير، صاحبه جزائري لم تحرّكه «العقلية الأهلية»، بل كان يسعى لإحداث نظام يمكن أن يفرض موقفا جديدا على الإدارة الاستعمارية الميكيافيلية» [العفن / 109]. وفعلا فقد علّق ماسينيون بعد ستّ عشرة سنة على كتاب (شروط النهضة) عند صدوره بقوله «هذا خطر حقيقي على الاستعمار» [العفن / 68]. لطالما كانت الروح البنابية فكرا وسلوكا خطرا فعليا على الاستعمار ووخزة في الضمير الأهلي (القابل للاستعمار) .

[1] العفن، ص 183 .

[2] المصدر ذاته، ص 112 .

2 - 2 - 2 - 2 - أمثلــة عمليــة

هذه بعض نشاطات مالك بن نبي على شكل مشاريع إصلاحية عملية، هذه المشاريع كانت تلقى مصير الإجهاض في كل مرة تحاول فيها التحقق. نذكرها هنا على الترتيب الذي ألفيناه في المذكرات قيد الدراسة* :

1 ـ بناء محطّة كهربائية بقوة مائة حصان بأفلو في الجنوب الوهراني. 2 ـ بناء مصنع إسمنت أو مدبغة بتبسة. 3 ـ بناء مصنع لورق الحلفة. 4 ـ إعداد مدرسة تقنية إعدادية بقسنطينة. 5 ـ محاربة مد رمال الصحراء في منطقة تبسة. 6 ـ إنشاء مدرسة تعليمية بتبسة. 7 ـ إنشاء جمعية حماية الفتاة المسلمة. 8 ـ تأسيس نادي التربية والتعليم في شارع شابوليبه بمارسيليا** .

---

* انظر مجموع النشاطات والمشاريع البنابية كما ضمتها المذكرات قيد الدراسة : (العنكبوت 22 ـ 37) (أول الضحايا 39 ـ 68) (الخونة-الأبطال على الدرب 108 ـ 112). وكذا الصفحات 150 ـ 153 / 178 / 181 ـ 183 / 173 ـ 175 / 157 ـ 170 .

** نحيل إلى تجربة نادي التربية والتعليم في شارع شابوليبه بمارسيليا [العفن / 157 ـ 170] [مذكرات شاهد قرن / 405 ـ 417] ونركّز على أهميتها في ميدانيْ التربية والتعليم. إذ من الممكن استثمارها من خلال تحديد مبادئها الأساسية في التربية والتعليم والآليات المعتمدة وتطويرها بعد ذلك بما يقتضيه المقام والعصر. والذي يتناول هذه التجربة بالتحليل، سينتهي به المطاف إلى جني فوائد كثيرة نافعة جدا في العملية التربوية والتعليمية. وهذه التجربة تكشف جوانب أخرى من العبقرية الفذة لدى مالك بن نبي، فلجوءه إلى استعمال الأعداد اللانهائية، والكونيات، والجغرافيا، لم يكن اعتباطا، فقد كان مقصودا لغايات بيّنها بن نبي. وقد كانت تجربة ناجحة بالفعل تستحق دراسة تحليلية مستقلة بذاتها .

خاتمـــة

ـ خلاصة :

من خلال المباحث السابقة لهذه الدراسة، تتضح لنا أهمية مذكرات (العفن)، باعتبارها حجر الزاوية في فكر مالك بن نبي، وكيف أنها سلّطت الضوء على كثير من القضايا المحلية والعالمية، وحلّلت بطريقة مفصلة أساليب الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، وأماطت اللثام عن جملة من التفاصيل تتصل بشخصيات تاريخية تعتبر أيقونات في التاريخ الجزائري الحديث، وكذا في كشفها لمميزات الروح البنابية في أصدق وأقرب صورة مما قد يبدو في كتبه الأخرى التي تحكي فكر الرجل لا سيرة حياته بكل ما اكتنفها من تفاصل .

ـ نتائج :

ندوّن هنا أهم النتائج التي انتهينا إليها من خلال القراءة والبحث في النقاط الآتية :

- إن مذكرات العفن بالنسبة إلى البناء الفكري البنابي ككل، تعدّ مدخلا ضروريا لفهمه، ولا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال لدى دراسة الفكر البنابي، فهي بمثابة البوصلة المرشدة في ساحة الفكر البنابية .
- من خلال موازنتنا بين مذكرات العفن، وبين كتاب (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة)، اتضحت العلاقة الوثيقة التكاملية بين هذين الكتابين خاصة. إنك لن تفهم جيدا كتاب الصراع الفكري لمالك بن نبي طالما لم تقرأ مذكراته الموسومة بـ (العفن) بالذات وليس (مذكرات شاهد قرن)، فكتاب العفن، هو الجانب التطبيقي التمثيلي التوضيحي للأفكار النظرية التي ضمها كتاب الصراع الفكري في البلاد المستعمرة .
- تعدّ مذكرات العفن، وثيقة تاريخية هامة يمكن أن تسلّط الضوء على أحداث وشخصيات تاريخية ذات أثر في تاريخ الجزائر الحديث .
- تكشف مذكرات العفن، تفاصيل ذات أهمية في حياة مالك بن نبي، وفي الحياة الجزائرية عامة، كذا في أجواء النخبة الشمال أفريقية المثقفة في باريس .
- أغلب الدراسات في الفكر البنابي، لم تتناول مذكرات العفن .
- يمكن اعتبار مذكرات العفن، صدمة في الوجدان الجزائري المأخوذ بتقديس بعض الشخصيات التاريخية، مما قد يؤثر على روح المبادرات والنقد.

فالمذكرات قيد الدراسة أحدثت نوعا من التوازن بهذا الصدد ووضعت الأشياء في نصابها .

- مذكرات العفن لمالك بن نبي، تجسيد حيوي حقيقي لأساليب النشاط الاستخباري الاستعماري في إطار الصراع الفكري .
- تحكي المذكرات قيد الدراسة الصورة الواقعية للحياة الجزائرية، دون اللجوء إلى أمثلتها، ولذلك لم يكن اختيار لفظة (العفن) اعتباطا لهذا الكتاب .
- ننبه إلى أن دراسة (السيرة البنابية)، ليست أقل أهمية من دراسة (الفكر البنابي). ويتحدث مالك بن نبي نفسه في كتاب الصراع الفكري عن الاتصال الوثيق الذي يربط أفكار الشخص وسيرته، وأنه لا يمكن الفصل التام هاهنا بأية حال. هذا وتبقى السيرة البنابية أو ما نسميه (الروح البنابية) هنا منبعا خصبا يمكن أن تصدر منه كثير من الدراسات في كثير من فروع المعرفة، ونؤكد على فرع التربية بالذات .
- إذا أخذنا مذكرات العفن، وحدها في بيان الموقف البنابي الكامل من العلماء والوطنيين، فإننا سنقع في غلط أو مغالطة التجزيئية، لذا لا ينبغي أخذ كتاب العفن مُفردا في بيان موقفه التام من العلماء والوطنيين .
- تكشف مذكرات العفن عن انخراط المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون في النشاط الاستخباراتي للحكومة الفرنسية، والذي أشار إليه أيضا الدكتور مصطفى السباعي، غير أن بن نبي أعطى شهادات حية وتفصيلية عن هذا النشاط، إذ كان هو ضحيته الأولى .
- تمتاز شخصية مالك بن نبي، بالمصداقية وذلك في تجسيدها التام لفكرها، فهو لم يكن من نوع المفكرين النظريين، بل كان مفكرا عمليا. هذا ونؤكد مرة أخرى، كما أكد هو نفسه، إلى أن السبب الذي جعل فكره لا يجد لدى الأكثرية آذانا مصغية وأيد منفّذة، هو العملية والفعالية التي ميّزته. واليوم نلمس ذلك الصمت المضروب على مؤلفات مالك بن نبي، فهو لا يكاد يذكر في الساحة الفكرية وبين الأكاديميين بما يستحقه فعلا. مما يجعلنا نضع علامة استفهام حول براءة هذا الصمت. يمكن أن نقول هنا إن مؤامرة الوأد والتناسي والصمت والصد التي تعرّض لها بن نبي في حياته لا تزال مستمرة حتى بعد وفاته منذ أربعة عقود من الزمن، وليس ذلك إلا لخصائص محددة امتاز بها فكره لها آثار بعيدة وجوهرية على جميع المستويات .

ـ توصيات :

نوصي هنا بمجموعة من المواضيع التي نراها بذرة لدراسات ممكنة، لذا فالمجال مفتوح لمن أراد أن يتناول مذكرات العفن بالدراسة، والنقاط الآتية هي ما استطعنا التنبّه إليه في مذكرات (العفن)، ويمكن أن يُضاف إليها ما غاب عنا :

- موقف مالك بن نبي من الوطنيين في ضوء مذكرات العفن .
- دراسة الخصائص النفسية والتربوية لمالك بن نبي .
- التعمق في فهم الفعالية والعملية في فكر مالك بن نبي (باعتبار أن هذا ما ينقصنا اليوم، العمل لا الكلام) .
- تسليط الضوء على نظراته في التربية والتعليم، خاصة في تجربته الفريدة في نادي التربية والتعليم في شارع شابوليبه بمارسيليا .
- دراسة آراءه عن الحركة اليهودية العالمية في ضوء مذكرات العفن كأساس وكتبه الأخرى .
- أدب الرحلة في السيرة البنابية من خلال (مذكرات شاهد قرن) خاصة وكذا مذكرات (العفن) .
- دراسة منهجه البانورامي في التفكير والعمل على نشره وترسيخه في المؤسسات العلمية والتعليمية .
- دراسة استقرائية لمفهوم القابلية للاستعمار، ولتأويلاته، في ضوء مذكرات العفن.
- بحث الأثر البنساعي (حمودة بن ساعي) في الفكر البنابي (مالك بن نبي) .

ـ انتهــــــى ـ

مكتبـة البحـث

مـــــادة البحــــث :

ـ بن نبي، مالك : العفن (مذكرات)، الجزء الأول (1932م ـ 1940م)، تر : نور الدين خندودي، الناشر : دار الأمة، ط1، 2007م .

مصـــــادر :

ـ بن نبي، مالك :

ـ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، دط، 1981م .

ـ الظاهرة القرآنية، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، ط4، 1987م .

ـ تأملات، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، دط، 2002م .

ـ شروط النهضة، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، دط، 1986م .

ـ فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر باندونج)، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، دط، 2003م .

ـ مذكّرات شاهد قرن، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، ط2، 1969م.

ـ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر : بسام بركة، أحمد شعبو، الناشر : دار الفكر بدمش، دط، 2002م .

ـ وجهة العالم الإسلامي، تر : عبد الصبور شاهين، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، ط1، 1986م .

مراجـــــع :

ــ البوطي، محمد سعيد رمضان :

ـ باطن الإثم (الخطر الأكبر في حياة المسلمين)، الناشر : دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة ـ الجزائر، دط، دت .

ـ من المسئول عن تخلّف المسلمين، الناشر : دار الشهاب، باتنة ـ الجزائر، دط، دت .

ــ الرضي، الشريف : نهج البلاغة (وهو ما جمعه الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين. علي بن أبي طالب عليه السلام)، تح : الشيخ محمد عبده، الناشر : دار الفجر للتراث، القاهرة، ط2، 2013م .

ــ السباعي، مصطفى : الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، الناشر : دار الورّاق للنشر والتوزيع .

ــ السحمراني، أسعد : مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، الناشر : دار النفائس، بيروت، ط2، 1986م .

ــ الشمراني، عبد الرحمن ناصر : مملكة الفضائح (أسرار القصور الملكية السعودية)، الناشر : دار الإنسان، بيروت ــ لبنان. ط1، 1988م، ج1 .

ــ الغزّالي، أبي حامد محمد بن محمد : إحياء علوم الدين، الناشر : الدار التوفيقية للتراث، القاهرة، دط، دت، ج1 .

ــ الكواكبي، عبد الرحمن : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الناشر : موفم ـ الجزائر، دط، 2011م .

ــ الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، تر : صادق جلال عظم، جورج طرابيشي، الناشر : دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط5، 1985م .

ــ بدوي، عبد الرحمن :

ـ الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، الناشر : وكالة المطبوعات ـ الكويت، دار القلم ـ بيروت، دط، 1982م .

ـ موسوعة المستشرقين، الناشر : دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط3، 1993م .

ــ بريون، فوزية : مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، دط، 2010م .

ـ بن عيسى، عمر : مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، ط1، 2007م .

ـ بونيفاس، باسكال : المثقفون المزيّفون (النصر الإعلامي لخبراء الكذب)، تر : روز يوسف، الناشر : ورد للطباعة والنشر، سورية ـ دمشق، ط1، 2013م .

ـ حماد، حسن : آفاق الأمل (تحليل فلسفي لمشكلة الأمل)، الناشر : دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة، دط، 1999م .

ـ خندودي، نور الدين : مالك بن نبي.. العائد (دراسات ومقالات)، الناشر : عالم الأفكار ـ الجزائر، دط، 2008م .

ـ رابح، تركي : الشيخ عبد الحميد بن باديس (رائد الإصلاح والتربية في الجزائر)، الناشر : المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4، 1984م .

ـ زكريا، فؤاد : نيتشه، الناشر : دار المعارف ـ مصر، ط2، دت .

ـ شاويش، محمد : مالك بن نبي والوضع الراهن، الناشر : دار الفكر ـ دمشق، ط1، 2007م .

ـ شيدر، هانز هينرش : روح الحضارة العربية، تر : عبد الرحمن بدوي، الناشر: دار العلم للملايين ـ بيروت، دط، 1949م .

ـ طرابيشي، جورج : معجم الفلاسفة (الفلاسفة، المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون، المتصوفون)، الناشر : دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 2006م .

ـ طوق، بولس : النار والنور في الفكر العالمي، الناشر : دار نوبيليس، بيروت، 2000م .

ـ عبّاس، فرحات : تشريح الحرب، تر : أحمد منور، الناشر : منشورات الجزائر للكتب، الجزائر، دط، 2015م .

ـ مسقاوي، عمر كامل : في صحبة مالك بن نبي (دراسة جامعة لحياته وإنتاجه في مراحلها الثلاث، الجزء الأول، الميلاد والنشأة والإنتاج الفكري)، الناشر : دار الفكر، دمشق، ط1، 2013م .

ـ نوتوهارا، نوبوأكي : العرب (وجهة نظر يابانية)، الناشر : منشورات الجمل، ط1، 2003م .

ـ هونكه، زيغريد : شمس العرب تسطع على الغرب (فضل العرب على أوربا)، تر : فؤاد حسنين علي، الناشر: مكتبة رحاب، الجزائر، دط، 1986م .

ـ ولد أباه، السيد : أعلام الفكر العربي (مدخل لخارطة الفكر العربي الراهنة)، الناشر : الشبكة العربية للأبحاث والنشرـ بيروت، ط1، 2010م .

ـ ياماكاجي، موتوهيزا : جوهر ديانة الشينتو (قلب اليابان الروحي)، تر : أمال حلبي، ط1، الناشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ المغرب، 2011 .

دوريـــــات :

ـ البنعيادي، محمد : مالك بن نبي في ذاكرة عبد السلام الهراس، الناشر : كتاب المجلّة العربية، العدد 395، ديسمبر 2009م .

ـ توبة، غازي : الفكر الإصلاحي عند مالك بن نبي (مقارنة ومناقشة)، مجلة رؤى، العدد 20، 2003 .

مرئيـــــات :

ـ خطبة إطلاق الانحطاط ج2، للدكتور عدنان إبراهيم، بتاريخ 27 جانفي 2017م.

ـ مالك بن نبي المجهول في قومه / وثائقي الجزيرة .

انترنـــت :

ـ المقال الإلكتروني : مالك بن نبي عملاق يخشاه الاستعمار والاستبداد، http://www.mohamedzitout.com/2013/10 .. بتاريخ : أكتوبر 2013م .